الجزء الثاني

هامش

1

يا مدينة تعود إليها شرود!

ما الذي تخفينه تحت خمولك وكسلك العتيق؟.. رغم أذرع الموج البارد التي ترش وجهك، وتحاول إيقاظك كل يوم؟

ما الذي تخفينه تحت تقواك الجديدة؟

يا مدينة طردت شرود! وها هي تعيدها ـ رغماً عنها ـ في سيارة البيجو إلى الحاضر الماضي.

دخان حريقك ما زال يبدو في الآفاق البعيدة لم تبدده الريح. وجدران القلاع ما زالت تخفي أسرارك. ولكن عيني شرود الواسعتين التائهتين في الطريق دفترا ذاكرة يتحدى سواد حبّرها التخدير.. رغم قرص صباح الرحيل.. رغم الموسيقى المنطلقة من آلة التسجيل مغازلة الأحلام الساذجة القديمة.. رغم الصوت الحنون الشادي لعبد الوهاب:

الصبا والجمال ملك يديك أي تاج أعز من تاجيك

رغم اليد السمراء الرجولية التي تركت المقود والسيارة للريح ولامست ببقايا حرارة قديمة ظهر يدك الملقاة في الحضن، علها تزيل عنها برودة الموت.

ولكن!.. يموت كل شيء. إلا ذاكرة المدينة. أبداً، لا تموت!

فلأسلم لك القلم يا شرود!

ولكن، تراك ما زلت قادرة على البوح؟ وذكريات الدمار الآتي تلوح! وخالد يرنو إليك. فتهرب عيناك إلى الحقول العارية وقد مضت عنها السنابل مع الحصاد.

تهرب عيناك. والسيارة بكما تمضي. وبينكما تتطاير أوراق

الذاكرة.

1

لقيتها،

جسداً يفور بالعطايا، وتورداً سريعاً ما يصاعد في وجنتي التفاح، والأهداب الطويلة الكحيلة ترتعش كثيفة على عيون الغزال، والضفيرة الطويلة السوداء ترقص على الخصر الرقيق.

والآن!

ها هي قربي، نحيلة، ذابلة، شديدة البياض والشحوب في ثوبها الأزرق الليلي، وشعرها الطليق على الأكتاف يطير مع الريح، هاربة بعينيها الكبيرتين إلى الحقول العارية على الربى، غارقة في الصمت، كأنها لا تسمع غناء عبد الوهاب:

الصبا والجمال ملك يديك

أي تاج أعز من تاجيك

لأجلها وضعت الشريط، علّ الزمن يعود ويقف عند ذاك المساء حين أهديتها الشريط وأسمعتها الأغنية لأول مرة.

كنا في مجلس القصب: مقعد صغير حذو الدار، تحيط به من الجهات الثلاث حواجز من القصب تتسلقه النبتات الخضر، تدعوني للجلوس هناك كلما راق الجو. في خلوتنا، قدمت لها الشريط. قفزت فرحة. ركضت تأتي بآلة التسجيل. أسقطت الشريط في مكانه وضغطت على الزر وانساب النغم الجميل.

قبل أن يشدو عبد الوهاب، كانت يدها الناعمة بين راحتي. التهبت أنفاسي وعيناي تأكلان وجهها الشهي، وأنا أسمعها المطلع، سائلاً:

الصبا والجمال ملك يديك

أي تاج أعز من تاجيك؟

رنت ضحكة صافية شهية خجول. بدت عيناها مضيئتي النشوة.

سحبت يدها من يدي ورفعت الصوت لتسمع الدار والأشجار والسماء الأغنية.

ها هو وجهها ملتفتاً إلى نافذة السيارة، ينسحب إلى الحقول العارية الهاربة.. هدير السيارة يتابع النغم، ولكنها لا تسمع. لا تلتفت. وتغرق في الصمت.

تتركني ليعود الماضي زاحفاً على درب العودة. باعثاً أشباحه تتطاير مع السيارات المتسابقة.. ويطل زهر.. يعود.. وذاك المشهد الأخير المريع..

و.. »أي تاج أعز من تاجيك؟!«.. والطبيب يواصل هراءه وتحاليله وتطميناته..

كيف أقدر على تصديق طمأنينته التي أغرقني بها قبل خروجنا من المصحة هذا الصباح فأمحو الماضي من الذاكرة؟! كيف أقدر؟! ومتى؟!

لكن الماضي رسمت بداياته بنفسي، حين سعيت إليها، ومضيت مع الحاجة إلى دار بنت الأصول.

لقيتها، جسداً يفور بالعطايا.

ولكن، هل يكفي جسد امرأة يفيض بالإغراء لتكون امرأة بحق؟ أليس الوعي بذلك هو الأهم، حتى لا تصبح مجرد جسد شمعي لدمية يسكنها العدم، ينذر بالخراب؟!

عدت متعباً آخر النهار.

السادسة والنصف، وقف المدير في وجهي. كان جل الموظفين قد غادروا. طالب بقائمة المفكرين في الإضراب والداعين إليه والمضربين وقائمة اليساريين، والمعارضين للنظام.

دعاني إلى مزيدٍ من مراقبة الموظفين وإعلامه بكل ما يدور من حديث. رفضت. اغتاظ. وعاد بصوته الجاف العالي يذكّر بمسؤوليتي كرئيس قسم. أطبق الباب في وجهي بعنف وخرج. تركت الشركة ساخطاً، لاعناً الأوضاع الجديدة.. غطرسة المدير وتسلطه، غلاء المعيشة المتفاقم المتسبب في دعوة النقابات المتوالية إلى الإضراب.. ضغوط العائلة الكبيرة ومطالب الأطفال المتكاثرة، في شبه نسيان أبيهم

المهاجر إلى الخليج. وحقدي في أوجه على طليق أختي الذي ما إن رآني في طريق عودتي حتى لوى عنقه وأولاني الظهر.

دخلت الدار مرهقاً. أقبلت شرود. أخذت سترتي.

-أهلاً! كيف حالك؟ تأخرت!

وقبل أن أجيب..

-خالد! ألم تقل ستشتري لي عوداً أعزف عليه، بعد زواجنا؟

كان في عينيها فيض من ألق غريب يترجاني.

-أوف! إني متعب! متعب الآن!

-طيب!.. طيب!.. استرح!

بعد فترة، عاد صوتها خافتاً ناعماً، مصراً على السؤال:

-خالد؟.. متى؟..

قلت باقتضاب:

-حين تتحسن الأحوال.

واصلت بإلحاح:

-ما بك؟ أنت تخيفني!.. ما هذه النظرة؟

لم أجب.

كان بركان في صدري يغلي، على أهبة الانفجار. تناولت سترتي ونزلت، تركت الدار إلى حانة بحرية بعيدة يرتادها الصيادون. طلبت بيرة أولى. ثم ثانية وثالثة.

حين عدت، وجدتها ندية العينين، وكآبة صامتة تنتشر على وجهها. فرشت لنا الكآبة حتى في الفراش. ظلت أياماً مستسلمة صامتة شديدة البرودة، كدمية منحوتة في جبال الصقيع.

حين عرفتها، لم أكن أدري أن ذاك الجسد الشهي يخفي بحاراً لا قرار لها من الغربة والغرابة، وأنها امرأة بكل مواصفات النساء الظاهرة، ومع ذلك تكره مجالسة النساء، تزهد في كل زينة، رغم طلبات أمي الدائمة لها بالتزين والتعطر في بيتها. لا تبالي بالذهب والحلي. أخيراً، تبيع أقراط الذهب، هديتي لها قبل الزواج، فقط لشراء آلة عزف لا قيمة لها تعوض بها العود الذي كانت تريده وتحتاج لمن يعلمها العزف عليه. وتدّعي أن الأرغن هدية من أخ لا تشغله غير الكتب، ناسية أنها غير قادرة على الكذب، وعيناها دوماً فضاحتان. ومع ذلك، عاد ذاك الألق الغريب يلتمع

متراقصاً في عينيها، وهي ترينـي الأرغن الذي انتهى إلى التحطيم ذات ساعة غضب.

حتى الأمومة حلم كل النساء، لا تريدها وتخاطر بها لأجل شهادة يمكن تأجيلها لسنة أو لبضع سنوات.

لم ترضخ لترك الدراسة وهي حامل، إلا بعد أن أرغمتْها هشاشة الجسد والدوران الذي أصبح يأخذها كل صباح لتركض إلى المغسلة، حتى سقط الجنين ولم يكمل شهره الثالث.

أحياناً أسمعها تدندن بنغم غير مألوف.

وأحياناً أخرى أجدها ساهمة ذاهلة، في عالم آخر بعيد. تذكّرني في جلستها تلك، العينان تائهتان، واليدان مستسلمتان لمسندي الأريكة الأرجوانية حذو النافذة، بما حدثتني به عن أمها:

»عندما كانت أمي حاملاً بي، كانت دوماً تجلس شاردة الذهن، دائمة الصمت، مما جعل أفراد عائلة أبي يتهامسون ويستنكرون ويطلقون الإشاعات، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى اتهامها بالجنون.

تصور جنون امرأة! كان وقتها أبشع من الموت.

حين أخذها أبي للطبيب، طمأنه بأنها حالة عابرة. وأنها فقط في حاجة إلى الخروج من ضيق البيت المغلق إلى الهواء الطلق والمساحات الرحيبة الهادئة.. لذلك، قد يكون أبي فضّل شراء بستان على البحر ليبني بين أشجار بيتنا، حتى لا تعاود أمي حالة الذهول المريبة التي بليت بها حاملاً بي.

وعندما ولدت، دعاني أبي بهذا الاسم الغريب »شرود«.

كان يقول لي: أريدك نادرة الوجود مثل اسمك.

رمقتني هنيهة ثم أطلقت ضحكة قصيرة خافتة وأسرعت تقول: - ما بك؟ أتخشى أن أكون نادرة الوجود؟!

وكأنها كانت تقرأ التوجس الصامت في عيني.

وقتها، دخلت أمها بطبق نحاسي رافعاً كأسين مذهبين مترعين بعصير البرتقال جنت شرود ثماره قبل قدومي، وصحناً مليئاً بالكعك الذي كانت تحرص على إعداده مع شرود في فرن البيت يوم زيارتي. وضعت الطبق أمامي وضَوْع الكعك الساخن يعبق المكان، وهي تواصل حفاوتها وتسأل عن أحوال أمي وأخواتي واحدة، واحدة. عندما خرجت وغابت في المطبخ، قبل أن أقضم الكعك، تناولتُ شرود. احتويتها بين

ذراعي. كانت دافئة، نابضة بالحياة، تشيع هالة عطر حولها.

-أريدك.. بكل ما فيك!

وأهويت على شفتيها الطريتين المستسلمتين قبل أن يأتي أمير من المدرسة ويقف بيننا.

«En amour! il n'y a que les commencements qui sont charmants»(*)

أين قرأت هذا؟

ليس الحب فقط كذلك.. فللغربة أيضاً، في البدايات، طعم العذوبة والإغراء. فإذا نحن ننجذب وننساق غافلين عن الضوء الأحمر المشتعل منذراً بالخطر.

«… il n'y a que les commencements qui sont charmants»

في البداية، كان يروق لي اختلافها عن النساء وزهدها في كل ما يهوين من حلي وزينة ونزهات وحفلات، فأزداد فخراً بالسمو والنبل الذي بين يدي، وأنا اشهد الحب الكبير في عينيها، في صوتها، في لمسة يدها، في أنفاسها يزيدني خيلاء وثقة.

ولكن، هل يمكن أن يصبح الحب الكبير قيداً من الشوك يسد الأنفاس ويسمم كل زرع؟ فإذا هي تغار من النساء الغريبات في الطريق، من ابنة الجيران، من زميلات العمل.

تسأل لم أطيل النظر إليهن؟ لم أكاد آكلهن بعيني؟

وأسأل: هل يحرم النظر؟

في البيت تدخل صَدَفَتها. تغرق في الصمت. تمسك كتاباً تبحر فيه، أو تجيبني حين أحادثها بنصف كلمة.

اكتشفت باندهاش أنها في هذا العصر تؤمن بعالم أفلاطون ومثاليته، تستشهد بأقواله، وتنسى أنها على الأرض لا في سماء أفلاطون. وأن الحياة تقوم على المادة وتحكمها المصاريف ومشاريع المستقبل لا العواطف والأحلام وغابر الحكم.

أحياناً أعود مرهقاً من الشغل.. من تراكم الأعمال وضغوط مدير

(*) **في الحب لا شيء رائع غير البدايات.**

الشركة وغطرسته، إضافة إلى مسؤولياتي العائلية الموزعة بين أمي وأخواتي والأطفال. أعود كأي رجل، ينتظر وجهاً مشرقاً ويداً ناعمة تمسح عنه التعب، وامرأة مريحة تُنسي الهموم.

وإذا برفيقة الدرب تشكو انشغالها بالشهادة الجامعية، وحاجتها لأستاذ يعلمها العزف. وتعترف بحلمها الأبدي المجنون لامتلاك عود. كأن مشاكل الدنيا انتهت ولم يبق غير الفن ليرفه عن الناس الخليّين. أو هي تترجاني أن نخرج، ولو ليومين، من الدار الكبيرة المزدحمة بالزوار، لنمضي لأي نزل نقضي فيه فترة بعيداً، نشعر فيها باستقلالنا، كأننا غير مستقلين بالطابق العلوي للدار.

أحياناً أخرى، لا أفهم ما تريد.

مازوشية مغيظة تأخذها. فإذا هي تزرع الحزن في كل شيء. أترك المدينة المتعبة مع الغروب لأخبار الغلاء المتفاقم والفساد وغضب الطلاب المقاطعين الدروس والتهديدات بالإضرابات للعمال والمدرسين الموظفين وأخبار هزائم العرب وخيباتهم وفضائحهم.

أدخل البيت كأي زوج عادي ينتظر الراحة في بيته. أمر على الطابق الأول. أتفقد أحوال الحاجة والبنات والأطفال المحتاجين إلى رقابة دائمة. ثم أمضي إليها، أقفز على الدرجات اثنتين اثنتين.

وإذا مشاكل المدينة والعالم، وأخبار الجرائد وأحداث كتبها البائسة تسكن البيت. تصبح داخله عنوان مأساة. لا ماساة الآخرين بل ماساتنا الخاصة في دارنا في عمق المدينة العتيقة.

أنهدُّ في أريكتي.

أبحث في التلفاز عن مشاهد مسلية: مقابلة رياضية، أغنية خفيفة، أو فيلم هزلي مضحك.. تقفز من الشاشة حرب لبنان وأحداث فلسطين ومشاهد الدمار تعلن بؤس عالم الغرب. أغيّر القناة. تندفع من مكانها.

-انتظر!.. انتظر! أرجوك!

تطل بالعودة فوراً إلى مشاهد الدمار وكأنها تلتذ بتلك المشاهد رغم البريق الأسود الندي في عينيها الكبيرتين. أصرخ فيها:

-كفانا بؤساً! يكفينا!.. هل بالعواطف والانفعالات يخرج العالم من بؤسه؟ ونتخلص مما نحن فيه؟

انظري كيف نهضت أوروبا!.. اليابان..!.. أمريكا! بالعمل والفكر فقط! لا بالعواطف والانفعالات!

تقول ساخرة:
-وأحياناً، نهضت أيضاً بامتصاص دماء الآخرين! وسرقة ثرواتهم!
-لا! بل بالعمل والفكر والتخطيط! بالعمل قبل كل شيء! لا بالانفعالات والعواطف كما يفعل جنسنا العربي!
تكاد تصعقني عيناها وهي تجيب بحماس:
-حين تسكت عن الظلم ولا تعلن رفضك بطريقة من الطرق، فأنت تشارك فيه. تصبح تابعاً وعوناً للظالمين.
أقول:
-كلام فارغ! الفعل فقط هو القادر على التصدي للظلم. عندما تكون نداً لظالمك، قوياً وقادراً يخشاك! وقتها يمكن مقاومته.
تقاطعني.
-هذا يعني الاستسلام! استسلام كل ضعيف! لو اتُّبع هذا المنطق في أي بلد لما قدر شعب أن يقاوم الاستعمار، وينتصر. ولبقينا ليومنا هذا تحت الاحتلال الفرنسي.
أوضّح موقفي:
-أنا ضد الكلام لا الفعل! الكلام فقط والانفعال والحماس المفرط ما نفلح فيه نحن العرب. الشعارات والعواطف والثرثرة! لا أكثر! أليس هذا هو السبب الأول لهزيمة 67 المخجلة؟ والهزائم المتوالية؟ ولما نحن فيه الآن من تمزق وتبعية وضعف؟!
.. ويغريها النقاش، وتنسى أني متعب في نهاية يوم مهلك. وحاجتي الآن، لا لدراسة شؤون العرب أو الاستماع إلى مطابها الغريبة، وإنما إلى الراحة والتسلية والنهل من لذائذ امرأة حقيقية تنسيني الأتعاب. وألعن العرب والعواطف والفن الذي قادهم إلى الهاوية وقادني، في قمة تعبي، إلى هذا الحوار اللعين.
النقاش لم يعد يفيد.
يبدو أني رغم تجاربي لم ألق هذا الصنف من النساء. ورفيقة الدرب تتحدث عن العالم والوطن وتنسى أن الوطن يبدأ من المساحة الصغيرة التي تقف عليها، من الجدران التي تحميها، من البيت.
البيت هو الوطن. والراحة فيه هي التي توفر القدرة لنشرها على مساحات أرحب من العالم، ولكنها تحلق في السماء أكثر مما تمشي على

الأرض.
أحياناً أتساءل: هل هي امرأة؟ أم نساء متعددات؟ أم جنس غريب أغراني تفاح الجنة في يديه؟
أم هي مدينة من النساء تعج بالغرابة؟

مرات أدخل. تأتيني راكضة. تصبح طفلة نزقة طائرة.. ترتمي في عنقي. تدعوني إلى جولة على البحر.
مرات أجدها شاردة.. كئيبة.. ساكنة.. كعجوز تنوء بهموم مئات السنين.
أخيراً، قررت العمل، بدعوى مساعدتي على تجميع أقساط منزل المستقبل مع عدم التراجع عن إتمام دراستها الجامعية بالمراسلة بداية من السنة القادمة.
.. »الفراغ قاتل.. الصديقات تفرقن.. أخي مشغول بدراسته.. وأنت مشغول بالعمل.. والعائلة.. جلوس الساعات بين النساء مشلولة اليدين.. لا قدرة لي عليه.. لا حديث إلا عن خطبة الجمعة.. حديث الإمام.. أخبار النساء. والحلال.. والحرام..«
لم تقل هذا تماماً، ولكنها كانت تبوح بكلمة، بجملة، وتسكت. تعرف الخطوط الحمر التي سطرتها من البداية. القانون الأول احترام عاداتنا وطقوسنا.. وما عدا ذلك تواجهه حدتي القاطعة.
كنت أعرف نفورها من العادات والتقاليد. ولكنها أدركت قيمتها عند وفاة أمها السريعة بعد مرض قصير. لازمتها أمي طيلة أيام العزاء. وظلت زينة بعد تعد كل يوم صينية الطعام مع اللوازم من خبز وغلال وتبعثها إلى منزل الفقيدة حيث بقيت شرود مع عمتها عائشة. حتى عندما عادت، كانت أمي وخديجة وزينة يكدن لا يفارقنها حتى يخففن عنها.

استجبت لنداء العمل، وتدبرت الأمر لتشتغل في مكتب صحيفة أسبوعية عرفت مديرها ذات زيارة استطلاعية للشركة. وافقت رغم تحفظي. فقد كان إعجاب خفي يداخلني بتلك الطاقة الهائلة التي تسكنها وتدعوها دوماً للحركة والنشاط، رغم طبعها الغريب.. وكآبتها الطاغية وأحلامها الفريدة التي لم أرها قبل في امرأة.
حتى بعد خروجها للعمل، ظلت تلك الكآبة كثيراً ما تخيم على

وجهها، وابتسامتها المشرقة التي كانت تبهجني، لا أدري، لِمَ مضت وأمست نادرة مع الأيام.

صرت أعود من العمل، أغير ملابسي وأخرج. أبحث عن ضحكة يمنحني إياها عالم القناعة والرضا في غرفة الحاجة الظليلة، بأثاثها الخشبي البسيط، وجلود الخرفان الممشطة المبسوطة أمام الفراش وحذو الجدران، تحت الستائر، مكونة بساطاً صوفياً أبيض على الزربية القيروانية العتيقة، والناموسية الناصعة الشفافة المنسدلة على فراش الحاجة، يشدها في الوسط الوتد الخشبي المزخرف المنقوش.

هناك تجتمع الأخوات والأحفاد وأبناء العم الزائرون، ونلقى الراحة والطمأنينة تمنحها لنا دعوات الحاجة بالخير والبركة وفتح السبيل، وهي تتربع تحت خيمتها الشفافة البيضاء. هناك، تعود الدعابات وتنطلق الضحكات النقية الصافية من القلب.

حين أترك البيت العامر وأصعد إليها لأنام، أحياناً، تعود طفلة يسبقها لومها لطول غيابي، تسأل عن الحب، هل مضى حتى أنساها وحيدة؟

ومع ذلك سريعاً ما ترق نظراتها العسلية الآسرة. تعود إلى الصفاء القديم. تمد ذراعيها البضين الناعمين، تحيطان بعنقي.

-أحبك!..

.. أحبك رغم كل شيء!

وتتعلق بي.

أجد النعومة الحليبية التي تطوقني لذيذة جداً. مثيرة جداً. آخذها بين ذراعي، أدخل المقصورة.

أطبق الباب وأنسى ما كنت أفكر فيه. أنسى! وأنهل من لذات امرأة لا تدرك ما لديها من كنوز. أنهل من لذات جسد ناعم الإغراء وأنسى الغرابة والغربة. أنسى الضوء الأحمر المشتعل في الجسد الشهي. أنسى لِمَ سميت شرود.. أنسى أن الخروج عن السبيل دوماً طريق الدمار.

وأي دمار وصلنا إليه!

بدأ بهروبها الغريب المتوالي إلى السطوح بعد منتصف الليل.

2

كلص تسلل يسرق الليل..

على أطراف الأصابع تلفتت خلفها إلى أعماق العليّ. بحذر ارتفعت يدها تطفئ المصباح الوحيد المضاء وخرجت بعد أن تركت الباب مواراباً حتى لا يوقظ خالد صوتُ انغلاقه.

نداء غامض آسر من أعماق هذا الليل يدعوها.

ندا ءحنين سحيق يوقظه ندى الليل الساكن.

مشت نحو السطح. هواء أوائل نوفمبر البارد يتسرب إلى جسدها، وأحداث هذا اليوم ما زالت تبعثرها. ولكن الليل يدعوها، لتلم شتاتها، لتترك دنيا القلعة. دنيا المدينة العجوز الشحيحة الآكلة الأضواء.

يدعوها الليل لتعود كطائر الفينيق ينهض من الرماد محلقاً في سمائه من جديد.

من خلال الدرابزين، بدا صحن الدار مظلماً بعد منتصف الليل، وقد غمره الصمت وأطفئت المصابيح ونامت القبيلة. أمسى بئراً مهجورة فاغرة فاهاً على قاع أسود مخيف. شاهدت أبواب الغرب الداكنة المغلقة بأقواسها الكئيبة أسنان غول متربص سوداء في انتظار فريسة ما.

بحركة تلقائية مباغتة ولّت بوجهها عن صحن الدار. سارعت بالابتعاد عن الدرابزين وخوف ثلجي يتسرب إلى المسام. لفّت وشاحها القطني على صدرها، وخطت مسرعة إلى الدكة، تحت جدار الجيران العالي حيث رصفت بعض نبتات صغيرة، علّ خضرتها تزيل بعض قحط الدار.

استسلمت لليل الندي ولجدار الدكة العتيق. ظلت زاوية من صحن الدار المعتم الخالي تقابلها تردد صدى الأسطوانة المشروخة لهذا اليوم.

كان الصحن يعج بالنساء، بعد أذان العصر.

أقبلن جماعات جماعات، في لباسهن الفضفاض الطويل وخمرهنّ المغطية الجباه، قبل أن ينسدل الستار عليهن في الغرفة القبلية أكبر غرف الدار.

في الصباح جاءتها الدعوة مع الأطفال.

-لا تنسي!.. عشية اليوم!

خرج خالد بعد الغداء ودخل الخوف. وجاءتها الأصوات من الأسفل متعالية متصاعدة كفقاقيع الغليان في مرجل ضخم لإحدى قبائل آكلي لحوم البشر.

وأتى صوت العندليب من بعيد، لذيذاً، صافياً.

أهـــــــــــــــــــواك..

واتمنــــــى لـــــو أنســـــاك..

وانســــى روحـــــي ويّـــــاك..

ابتسمت له واقتربت من النافذة تتابعه يملأ الفضاء أنغاماً ويسافر بها بعيداً عن ضجة الدار المريبة.

بغتة.. طُرق بابها ودخل أمير. ما أن رأته حتى طارت إليه فاتحة الذراعين تحضنه، ضمته مرحبة غير مبالية بالأسئلة الحائرة في عينيه. أخيراً يخلصها أمير. لن تنزل هذا المساء. ستحتج به. أسرعت تغلق خلفه الباب.

-ماذا عندكم في الدار؟

-لا تهتم!.. مجرد ضيوف.. ادخل!

ما أن استراح على الأريكة الأرجوانية الداكنة حتى توارت هاربة من أسئلة حارقة بدت على شفتيه. عادت بكأسي شاي أحمر صغيرين مذهبين يتعالى منهما البخار على الطبق الفضي. وضعت الطبق الصغير أمامه. بادرته لتحديد وجهة الحديث. سألت عن دراسته، عن صحة عمتها عائشة، عن أخبار البيت والحمام.

بخفة نهض. رفع ستار النافذة الصغيرة. ألقى نظرة على الخارج، تجول في أرجاء البيت وهو يجيب باقتضاب.

فجأة توقف. عاد يواجهها سائلاً:

-هل بدأت الدروس بالمراسلة؟

كانت نظرته قد توقفت عند الأوراق المرقونة قرب الظرف

الكبير الموضوع على الطاولة وقد فض حديثاً.
-اجلس أولاً واشرب شايك!.. ألا يتعبك الدوران؟

رفع ستار النافذة الشفاف المطرز مولياً ظهره. من خلال ثقوب البرمقلي بدت السطوح المتوالية صاعدة نازلة حتى خيط الزرقة البعيد. كان صوت عبد الحليم ما زال يرفرف على السطوح.

أهـــــــــــــــــــــــــواك
وأتمنـــــــى لـــــو أنســـــاك..
وأنســـــى روحـــــي ويّـــــاك
ولـــو ضـــاعت تبقـــى فـــداك
لـــــــــــو تنســـــــــاني..
وانســـــــــــــــــــــاك..

بدا لها أمير يترنم معه.
فجأة، بين موجات النغم، ركض إليها صوت أخيها الصبي:
-أين وعدك؟.. أين لحنك الموعود يا شرود؟
مرت سنوات.. سي الطاهر لم يعد يزورنا.. منشغل بالرشيدية وبموسيقاه.. ولكنه ينتظرنا.. عمتي تقول ذلك، عندما تتذكر زياراته البهيجة. سألها عنك ذات لقاء.. متى نزوره يا شرود؟

ظل صدى صوت الصبي يملأ الفضاء وشدو العندليب يعبره مليئاً بالشجن.

ولقتنـــــي بنســـــى جفـــــاك.
واشـــــتاق لعـــــذابي معـــــاك
وألقـــــى دمـــــوعي فكـــــراك
أرجـــــــع تـــــــاني للقـــــاك

قامت شرود هاربة من صوت الصبي، مسافرة على غيمة النغم المنداح.

أهـــــــــــــــــــــــــواك
وأتمنـــــــى لـــــو أنســـــاك
وأنســـــى روحـــــي ويّـــــاك

غاب الصبي وسكت العندليب وعادت إلى الفتى الواقف أمامها.

وصلتني الدروس.. بدأت ببحث حول..

لم يمهلها.

-لِمَ اخترت العمل في المكتب الفرعي لصحيفة المساء؟ ألم تكفك الدراسة؟ أكيد إنك مجهدة.

-.. .. ..

امتدت يدها إلى كأس الشاي وقد تلاشى بخاره. قدمته له.

-سيبرد!

رفعت كأسها وغرقت فيه.

»لِمَ تنكأ الجراح يا أمير وأنا أتعلق بك شراعاً أواجه به المجهول القادم؟ لِمَ تسلط علي سياط الأسئلة وأنا منها هاربة؟.. أجل أنا مجهدة!.. مجهدة!.. مجهدة.. أكاد أموت إجهاداً. ولكني في حاجة إلى أن أقتل نفسي أو أحييها جهاداً! فلا مفر! لا مفر من جدران القلعة العالية المتآكلة! لا مفر من قشور الرطوبة المتساقطة دوماً.. تدخل حلقي!.. تخنقني!.. غير العمل!.. حتى الموت!.. حتى الحياة!

العمل الدائم ينقذني من المحاكمة اليومية القاتلة بصمتها تقيمها نظرات النساء وهمساتهن، مُدينة، تلهب شعري المسترسل وذراعي العاريين وتحرق كتب جبران ورامبو وستندال بين يدي، كلما هممت بالخروج.. ينقذني من اقوال الفقهاء المنفوضة من عث الكتب الصفراء متناثرة مع الغبار، يرددها شبه الأميين، يرسمونها على جدران المدينة المشروخة وعلى كل حيطان قلعتي وسقوفها.

العمل الدائم ينسيني عيني خالد تتسلقان كل جسد أنثوي يمر في الطريق أو تتلصصان من ثقوب البرمقلي على بنات الجيران أو تغافلاني ليمضي بعيداً سارقاً لحظات متعة آثمة..

ينسيني أنني في مدينة المتناقضات أكاد أنكسر.

فليقتلني العمل! لتغرقني ملفات الأبحاث والدروس! حتى أنسى!.. أنسى!.. أنسى!..

أنسى أن الحب أكبر وهم طار بي على جناحين وثيرين إلى سابع سماء.. وألقاني في القلعة، على فراش خالد.. ثم اندثر. وتركني لغربتي بين النساء يعدن بي إلى الجاهلية الأولى ويحفرن لوأدي في الصحراء«.

أمعن أمير النظر في عيني شرود الضائعتين في ثمالة كأسها.

-ما بك صامتة؟
-لا شيء! فقد سرحت!.. اشرب شايك!
وألصقت ابتسامة على ثغرها.
قامت تغلق النافذة التي تركتها مفتوحة. وأسدلت الستار.
-نسيت أن أسألك.. ماذا تقرأ هذه الأيام؟
التمعت عيناه. ومن جيب سترته الدجين قدم لها كتاباً صغيراً. قرأت العنوان »مذكرات تشي غيفارا«. كانت نجوم شديدة البريق تتقافز في ليل عينيه الرحيب.
تصفحت شرود الكتاب. توقفت في صفحة المقدمة:

»عندما تداولت الإذاعات نبأ اغتيال أرنستو غيفارا في غابات بوليفيا ولم يتجاوز التاسعة والثلاثين كنت صغيراً نسبياً ولكن الحدث استقر في ذاكرتي ووجداني وعقلي الغض سؤالاً كادت حياتي كلها فيما بعد أن تكون محاولة للإجابة عنه.

.. مقتل رجل درس الطب وترك الوزارة ليناضل بين الجبال والغابات، رغم مرض الربو الذي يلازمه. رجل كان يحلم بتغيير العالم على طريقته المفعمة فروسية ونبلاً«.

بدأت أصوات النساء تتعالى حادة ضاجة من صحن الدار.
رفعت شرود رأسها. شاهدت أمير مستغرقاً في صمته ووجهه الفتي يلونه فجر طالع. سرت فيها بعض انتعاشة فجره.
-هل تترك لي الكتاب؟
-خذيه!.. لقد قرأته في سهرة!
أضاف ويداه ترتفعان وتتحركان في حيوية وحماس، بدا لها جديداً عند أمير:
-تصوري!.. رجلاً واحداً تطارده المخابرات الأمريكية من بلد لآخر! تتابعه في الغابات، ويطارده أربع مائة جندي لاقتناصه مدعومين بالطائرات الأمريكية وقنابل النابالم. كان يدرك ذلك ومع هذا كان يقول: »لا يهمني أين ومتى سأموت. ولكن يهمني أن يبقى الثوار قائمين يملؤون العالم ضجيجاً حتى لا ينام المستبد بكل ثقله فوق أجساد البائسين والفقراء والمظلومين«.
سرت حمرة خفيفة في وجهه والحماس يتقد في ناظريه. كانت

تتأمله يتحدث ومشاعر غامضة متضاربة تتجاذبها.. فرح ملتبس وشبه اطمئنان وخوف غامض مجهول.

-.. لقد طاردوه حتى ألقوا القبض عليه وهو جريح. وفي أكتوبر 67 نقلوه إلى مدرسة صغيرة.. هناك قتله جندي بوليفي كان يرتجف وهو يضغط على زناد الرشاش. فصرخ به غيفارا: »هيا!.. أطلق النار أيها الجبان!.. إنك تقتل إنساناً!..«

انطلقت قهقهة خلية نسوية من أسفل الدار، علت على صخب النساء، بينما كان أمير يفيض حيوية.. يتقد.. يقف ويجلس ويدور.

-تصوري!.. لم يكتفوا بموته. بعد أن قتلوه، دفنوه في مكان مجهول تحت طبقة من الإسمنت للقضاء على الأسطورة!

على الهامش كان أمير قد كتب بقلم الرصاص كتابة عصبية سريعة. »اغتيال الأحلام«. لم تعلق، ولكنها سألته:

-أتعرف قصة الحلاج؟

أجاب بالنفي. نهضت ومن المكتبة مدت له كتاباً.

-على صليبه، قطعت يداه ورجلاه قبل أن يضرب عنقه وتحرق جثته ويذرى رماده من أعلى صومعة.

في الوجه الفتي، اشتغل الغضب والاستنكار والدهشة.

-مصيران متشابهان!

-وتاريخ متشابه!

هدر الصمت بينهما برهة. قالت بعدها في شبه لوعة:

-كل خارج عن القطيع قدره أن يحرق أو يحترق.

قطب الجبين الناصع الفتي مستغرباً.

-ولكن في احتراقه تشتعل منارات التاريخ!

-هذا إن أمهله الزمن، ليكون منارة.. وأي منارة؟! يذبح فيها الإنسان ألف مرة وتنصب له ألف محرقة.

هاجت بحار أسئلة في عينيه.

-أأنت التي تقولين هذا؟.. أنسيت؟

.. كنت تجلسينني أمامك طفلاً، تعلمينني نقيض ما تقولين الآن.. »سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء«

و»إذا لم يكن من الموت بد.. فمن العجز أن تموت جباناً«..

وحكايات البطولة!.. أنسيتها؟.. لِمَ أصبحت سلبية هكذا؟
-تأتي أوقات يصيبنا الذبول.. ننسى الحلم. ننسى أحلامنا القديمة إذ نكتشف أنها مجرد أحلام.. أو.. أوهام!
-هناك مثل إفريقي يقول: »الغصن الذي لا يحلم لا يزهر«.
-ولكنه أحياناً يزهر ناراً تحرقه.
-ألهذا الحد؟! أصبحت هشة هكذا؟!.. ما بك؟
-. .. ..
راوغته ولكنه عاد يسأل: مم تهربين؟
ابتسامة ساخرة أجابته وذراعها تمتد إلى شعره الأسود وقد استرسلت خصلة على جبينه. غاصت أصابعها في ليله في ألفة حانية.
-لقد أصبحت محققاً صغيراً!
بسرعة وانفعال رفع يدها، مبتعداً، ودفع بشعره إلى الوراء.
-لم أعد صغيراً.
وأضاف محتداً مؤكداً ونظره مصوب نحو الكتابين الموضوعين على الطاولة.
-كل المصلوبين في دمنا باقون.
وبصوت عميق أخذ يتلو أبياتاً للوركا.

كانت شرود تتأمل هذا الفتى الذي يحدثها عن تشي غيفارا وينشد أشعار لوركا بمحبة وإعجاب. هذا الفتى، أمير، صغيرها الحبيب. طفل البحر والرمل والشجر والأراجيح.
اقتربت منه في فيض محبة. تخضلت عيناها بدموع خفية وهي تتأمله. ها هو يركب فرساً بيضاء جامحة، يطير، ويدعوها، في سماء رائعة الزرقة.
لم تعد شرود تشعر بوطأة السقف العالي الكئيب وقد عرشت فيه خطوط الرطوبة السوداء باعثة أشكالاً مخيفة تخفي حتى بهرة الضوء القادم من النافذة الوحيدة. لم تعد تشعر بغربتها في الدار بعد خروج خالد واجتماع النساء في شبه مؤتمر غامض مشبوه في الغرفة القبلية.
رفعت شرود ذراعيها لزرقة الفجر. ضمت أمير إليها في غمرة دهشته. رأسه أصبح يعلو رأسها. ما عاد أمير طفلاً! ما عاد الطفل الذي

يدفع بها الأرجوحة. يربت على شكواها ويحنو بيديه الصغيرتين على أوجاع ظهرها، ويرتب معها الأصداف والأحلام حول أحواض الشجر، ويرقص في حلقة الغناء وسط تصفيق الكبار وإعجابهم. لا.. أمير لم يعد يكفيه اللهو والأحلام.

خلال سنوات قليلة امتد وصلب عوده. وتألقت نضارة الفتوة فيه. قفز على سنتين دراسيتين لتفوقه وتوهجت شهوة الكتاب والمعرفة. وتلاشى ذاك الرضى الطفولي الجميل في عينيه.

في غفلة منها، طار به الزمن ليشهد زمن المدينة الجديد. وها هو يفتح العينين حادتين على قلق الدنيا وأسئلتها ويتوق لكشف المجهول.

من فوق كتفه، قابلتها صورة غيفارا على غلاف كتابه.. الشعر الأسود الطويل مسترسل ثائر تحت البيرية الداكنة، والعينان الليليتان الواسعتان، فائضتان تحدياً. والشفتان الدقيقتان مزمومتان على عزم خارق مكتوم.

-رباه!.. كم يشبهك!

هتفت بغتة. ضحك أمير وهو يبعدها عنه. وضحكت شرود معه مقسمة على الشبه. وسريعاً ما صاحت مستدركة:

-لا قدر الله!.. لا قدر الله!

لم يعد أمير وشرود يسمعان الأصوات المتعالية من أسفل الدار. ولم ينتبها إلى الصمت العميق الذي ساد فجأة. فقد شغلهما حديث الشعر والأدب وأخبار الثوار والمتمردين. وتطايرت بينهما أقوال الحكماء والشعراء وتلاشى سقف الرطوبة الكئيب. ونزلت إليهما السماء رحيبة مضيئة الزرقة، مترعة ببهجة الحياة.

فجأة، هزت الدار صرخة مروعة.. تطاير الشعر والحكمة وبهجة الحياة.. وفرت اللغة.. وسقط السقف العالي بحجارته وطحالبه على رأسها.. أمسكت رأسها تصم أذنيها عن صرخة غريبة مزلزلة، وصوت رجالي خشن يعلو من الأسفل مستغيثاً مرعباً:

أختا آ آ آ آ آ آ آ آه

أختا آ آ آ آ آ آ آ آه

أختا آ آ آ آ آ آ آ آه

صوت يمتد صداه بلا نهاية مكرراً النداء المروع
أختا آ آ آ آ آ آ آ آه
وصدى الصرخات المزلزلة الفاجعة يتوغل في كل زوايا الدار وأحجارها.
ركض أمير. ركضت شرود خلفه. أطلا من الدرابزين على صحن الدار. بدت مربعات الرخام العتيق باردة لا مبالية والستائر المخططة مسدلة مرتاحة على أبواب الغرف! لم يفزع أحد من أهل الدار!
تطايرت الأسئلة في العيون المندهشة. بغتة، بعد لحظة صمت، عاد الصوت، كما بدأ في شبه نواح هذه المرة مردداً بلا توقف:
أختا آ آ آ آ آ آ آ آه
أختا آ آ آ آ آ آ آ آه
أختا آ آ آ آ آ آ آ آه
ثم أخذ يتسارع ويتسارع وينأى.. حتى الغياب. صوت يعلن عن كارثة وهول صاعق قادم. صداه يحفر الصخر.. يسقط القلب.. يتركه يفر فرقاً.. إلى الجنة.. أو.. إلى النار.

انتبهت شرود أخيراً من ذهولها.. لقد بدأ الدرس.
رفع أمير رأسه والتفت إليها مندهشاً وقد تنفس الصعداء.
-ماذا أصاب هذه الدار؟؟
عاد يطل على الصحن وقد تحرك ستار الغرفة القبلية ينبئ عن وجود ما. وبتهكم حانق أردف:
-يا له من تسجيل رائع!
أمسكت شرود بذراعه.
-ادخل! إنهن محجبات!
نظر إليها بطرف عينه ساخراً وأطبق خلفه الباب.

ما إن دخلا، حتى ارتفع صوت رجالي بآيات من القرآن الكريم، بعد أن اختفى صدى الصرخات المستغيثة المنادية.
ارتمت شرود على أول مقعد وإعياء مباغت يهلكها. غاب عن

عيني شرود أمير. وعادت الجدران خشنة قاتمة عالية. وعاد السقف يشوهه أخطبوط الرطوبة السوداء القادمة مع الشتاء الجديد. وأطل الخوف. خوف قاتم غامض تنمو طحالبه حولها.

رغماً عنها خنقها السؤال.. لم يفتتحون آيات السماء بكل هذا الرعب؟! لِمَ يحوّلون الدين وحشاً مخيفاً كاسراً؟؟!

كانت آيات السماء تتلى، تنعش، وتحيى، كعذب الغناء، رحيمة حانية، يرسلها الإله فتحبه وتدعوه وتسعد بوجوده حولها، في حناياها. كانت آيات السماء رحمة وشفاء.

فلم ينزعون الرحمة؟ ويطلقون الرعب يقدمها؟ يكسر القلوب والجدران يمحو صوت الإله الرحيم الحبيب.. يمحو الدنيا، ولا يبقي غير مطارق الهول، وأبواق القيامة؟!

كانت الحلقة واسعة والأطفال والأعمام والعمات على الزرابي وجلود الخرفان والكراسي الخزفية الصغيرة أمام الغرفة الشرقية، تحت دنتيل الأوراق الخضراء لدالية العنب. وسماء الصيف منتشية الزرقة.

كانوا حولها، وهي هناك، ترتل القرآن بصوتها الدافئ العميق والمصحف بين يديها على كرسيه الصدفي المزخرف. رأسها يتمايل في خشوع مع الترتيل فينحني شعرها الكستنائي المتموج ويرتفع، في شبه صلاة.

كان يلذ لنا الاستماع إلى التلاوة العذبة للآيات البينات بصوت أنثوي حنون. نفهم نحن الصغار نصف فهم ما نسمع، ونفخر في سرنا بأن يُقرأ الكتاب الكريم وترتل آياته بحذق في عالم النساء الأميات. ونرى الإكبار والتبجيل في عيون عماتنا وهن يستمعن إلى الآيات المرتلة من زوجة أخيهن التي لم تغادر البيت صبية ولم تؤم مدرسة. ولكن عقل جدنا النير جعل البيت المغلق يتحول مدرسة يؤمها المؤدب والمدرس كل يوم يعلّم البنات اللغة والقرآن.

ذاك الزمان، كانت السماء رحيمة، وإلهنا له صوت ناعم حنون يشع نوراً، يشدو به الكون بأسره. وكان القرآن لقلوبنا الغضة بلسماً، فنقرأ كل ليلة قبل أن ننام، مستلقين على أسرتنا الصغيرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. صدق الله العظيم.

ونغمض عيوننا، وإله الكون يحرسنا، وننام مطمئنين.

والآن!.. لم يرجمون إلهنا ذاك؟.. الطيب، الجميل، الحبيب، الرحيم؟.. لِمَ يخنقون صوت الرحمة بأحجية الرعب السوداء؟..

انتبهت شرود إلى صوت الشيخ يعود منادياً من الشريط المسجل في الغرفة القبلية.

-يا أختاه! الحجاب أو النقاب!

وأمير يهب فجأة، تطرق قدماه المبتعدتان أرضية الغرفة، يرمي سلامه. ويخرج قافزاً على الدرج اللولبي الذي يكاد يسقط تحت وقع أقدامه.

بعنف اصطفق باب السقيفة خلف أمير. بدا لها شرر يتطاير خلفه.. يأتيها منذراً مع كلماته الحارقة. »المدينة ميتة.. الأزقة عفن وزبالة.. ولا يشغلكم غير النقاب؟.. والحجاب؟.. هه!.. بلى!.. أسدلوا النقاب!.. اربطوا الحجاب!.. ليختفي الدمار والزبالة!!«

نادته من أعلى السلم، ولكنه كان قد غاب تماماً.

عادت تغلق باب العلّيّ الذي تركه أمير مفتوحاً بعد خروجه المباغت. كانت الشمس قد اختفت، وظلت السماء غائمة تمطر وحشة وغربة. غمرتها قشعريرة برد.. ريح جاهلية تسربت من مسام الجدران تغمرها بالرمل.

ها هي طفلة الجاهلية الجديدة! يُحفر لها القبر وتُعد لها مراسم الوأد!

نفضت عنها الرمل. هربت من الجاهلية الجديدة تدفن رأسها. على عجل نهضت. أخذت كأسي الشاي من المنضدة الصغيرة. وقتها، لمحت كتاب أمير مفتوحاً وغيفارا ينهض، يحدق فيها بعينيه الليليتين.. أدارت وجهها وعجلت بالخروج..

في ركن المطبخ المطل على الطابق السفلي، عاد إليها صوت

الخطيب المسجل يدق أبوابها المغلقة مستفيداً من تقنيات العصر الحديث وحشرجته ظلت حادة نائحة:

أختا آ آ آ آ آ آ آ آه

أختـاه إن الـدرب صـعب مجهـد	يحتـــاج زاداً فـــاتقي مـــولاك
قـومي إذا حـل الظـلام فـرددي	آيـــات ربـــك ولتجـــد عينـــاك
فـــالله حـــرم أن تمـــس جهـــنم	عينـــاً بكـــت فلتســـعدي ببكـــاك
هـل تـذكرين بظلامـه قبـراً غـداً	ينســـي مـــن الـــدنيا بـــه مثـــواك
صومي نـهارك ما استعطت فإنه	يطفـي بـه يـوم الحسـاب ظمـاك

ولكن أيتها المسلمة! أيتها الفاضـلة! أيتهـا الطـاهرة! أيتهـا المنقبـة! أيتهـا المحجبـة! أيتهـا القلعـة الصـامدة! أيتهـا الـدرة المصـونة واللؤلـؤ المكنون!.. اصبري وصابري واحتسبي!..

تدفق الماء صاخباً في الحوض وقد فتحت الحنفية على أقصـاها. نفضت ثمالة الكأسين الصـغيرين. غمرتهمـا برغـاوي محلـول التنظيـف، نتحت شلال الماء. عاد الزجاج صقيلاً لامعاً.

».. وقـد دلـت الأدلـة مـن كتـاب الله وسـنة رسـول الله والنظـر الصحيح والاعتبار والميزان، على أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها عن الرجال الأجانب الذين ليسوا من محارمها. يقول شيخنا ابن بـاز فـي كتابـه ثـلاث رسـائل فـي الحجـاب عـن آيـة الإدلاء عـدد 59 مـن سـورة الأحزاب: أمر الله، والأمر صيغة من صيغ الوجوب فـي علـم الأصـول كما تعلمون، جميع نساء المسلمين بـإدلاء جلابيبهن علـى محاسـنهن من الوجه والشعر. فالشيخ يقول بوجوب النقاب.

ويقول الشيخ المـودودي: »نزلـت آيـة الإدلاء خاصـة، فـي وجـوب سـتر الوجـه. فهو أي الوجـه، مـن أكبـر مفـاتن الجمـال الإنسـاني، ثـم هـو العامل الأكبر للجاذبية الجنسية«.

سقط الكأس الصغير المذهب من يد شـرود. رن صـوت الانكسـار وتطـايرت شظـايا الزجـاج..

»كذلك قال الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن الكريم..«

التمعت قطرات دم في اليد الخاوية.. وانغرس سهم وجع حاد في الرأس. عجلت شرود بالدخول تطلب قطناً وحبات أسبرين، تسكن بها الصداع القادم اللعين.

..»كما قال الإمام الزمخشري وابن حيان، والخطيب الشربيني وابن تيمية، وابن القيم..«

دفعت الباب على وحدتها. رفعت رأسها وابتلعت قرصي أسبرين. اصطدمت عيناها بطحالب الرطوبة القاتمة في السقف العالي، بقضبانه الحديدية الصدئة، تمد أذرع أخطبوط حتى الزوايا وتتسلل نازلة إليها، مع الجدران.

على الطاولة، بدا وجه غيفارا غريباً، في عالم ناء سحيق. ولكنه كان يرى طحالب الرطوبة، ويسمع معها الصوت المنادي مكرراً:

أختاه إن الدرب صعب مجهد يحتاج زاداً فاتقي مولاك

.. ..

هل تذكري بظلامه قبراً غداً ينسي من الدنيا به مثواك

انحبس قرصا الأسبرين في الحلق لا يمضيان، المهانة الخانقة، والغربة الشاسعة تحيل العالم ضباباً بلا معالم.. جرعت دفعة واحدة كأس الماء، واسترخت على الأريكة.

ظل العليّ خالياً بارداً، والغروب من وراء ثقوب البرمقلي، بلا حمرة ولا شفق. وظلت شرود وحيدة، مستسلمة للأريكة، تمسك جبهتها، والصوت الرجالي المحشرج يأتيها من اسفل الدار، منذراً، مهدداً، وخالد، من بعيد، ينظر إليها ببدلته الرسمية، في إطار الصورة الأسود، صامتاً، لا مبالياً.

.. خالد!..

أين أنت؟ أين أنت تخفيني في صدرك! يضمد دفؤك ما انفتح من جراح. أين أنت؟ تسكت أصوات الغربان القادمة تسكن خرائب المدن والأرواح! تأخذني خارج القبور المفتوحة. خارج المدينة الموعودة

للظلمات.. تكون لي الوطن الذي أكاد لا ألقاه!..

عاد إليها صوت الخطيب من آلة التسجيل:
»..هل تذكري بظلامه قبراً غداً ينسي من الدنيا به مثواك«
شاهدت بلاطة القبر تسقط فجأة على صدرها ووجهها. كمن صعقته قوة كهربائية رهيبة، قفزت شرود.. ركضت فارة من القبر.. وشاحها الأحمر يصهل خلفها.. نزلت طائرة على السلم اللولبي.. ركضت تصفعها جدران الزقاق المتقابلة العالية، وقد تناوب عليها الزمن والأشقياء.. قشرت الحجارة العتيقة الكئيبة وتقافزت بينها الفئران.. ركضت بعيداً عن الزقاق الضيق المتآكل. دارت مع الدروب الملتوية بأقواسها المعتمة وشروخها وقططها وفضلاتها وحفرها وبركها.. حتى وصلت البطحاء.
أخيراً، استنشقت هواء جديداً مشبعاً بنسيم البحر.. تمهلت الخطى السريعة وهي تتعدى البطحاء إلى الشارع الفسيح.

كانت سماء أواخر الخريف واطئة، غائمة، والشوارع كسلى. والوجوه المارة أو المكدسة في مقهى البطحاء منطفئة.. بدت المدينة ما زالت غارقة في النوم، لا تريد الاستيقاظ، رغم ريح الشمال الباردة توقظ الطير والشجر، وتنشر روائح البحر ورسائل السواحل البعيدة.
ذكرت تلك الحكاية القديمة التي تقول: »المدن المولودة على البحر، لا تموت«.
.. أحقاً؟.. لا تموت؟! وقد هربت من بلاطة القبر تكاد تسقط على رأسها!.. من أخطبوط الموت يطارد عنفوانها! مع ذلك، ها هي مدينة هيبو! تغفو على طاولات المقاهي! لا ترى.. لا تسمع.. تنام على الأرصفة.. تستسلم للموت.. وترفع بصمت شاهدة قبرها.

مشت صوب البحر. نزلت إلى الشاطئ الشاسع المهجور. غاص حذاؤها في الرمل. أولت ظهرها للأرض. وأسلمت وجهها للأفق الأزرق البعيد. أقبلت نوارس بيضاء قليلة. انسابت فوق المياه الراعشة، وطارت برشاقة، فاتحة أجنحتها للمطر الخفيف الذي بدأ يهطل.
تركت شرود الرذاذ يرش شعرها. يغسل شحوبها. أرخت له

الرموش. واستسلمت لأصابعه الناعمة اللامرئية تعيد لوجهها بعض تورده.. اقتربت من البحر أكثر. رمت حذاءها خلفها للرمل المبتل. أسلمت قدميها للموج، ودعت إليها البحر الطهور. انحنت، ومدت كفيها إلى موجة قادمة يتناثر زبدها الناصع البياض على وجهها. رفعت البحر المنتشي الملاعب إلى وجهها.. استنشقت رائحة الماء الملحة الشذية.. غمر البحر وجهها، فدعته ليصحبها إلى النسيان.

بين أوتار السماء المائية المتلألئة والبحر، أسلمت شرود، وتحولت إلى أثير، وقد اختفت تماماً خلفها المدينة.

في الطابق السفلي، أضيئت المصابيح واسطخبت أواني الطعام والكؤوس والأطباق في المطبخ.

نزلت شرود للمساعدة. كانت سلوى ومريم تكملان غسل بقيّة الأواني التي تكدّست في المطبخ بعد اجتماع النساء. أخذت كدس الصحون وشقت به صحن الدار الذي بللته رطوبة الليل ورذاذ المطر. دخلت بالصحون الغرفة المقابلة، وعادت إلى المطبخ تقطع الخبز وتضعه على الطبق النحاسي الكبير، وتخرج به إلى حيث وضعت المائدة الواطئة المستديرة، تحيط بها جلود الخرفان.

لم يلتفت إليها أحد.

بدت ضجة البيت واصطخابه وانشغال النساء فيما بينهن، سدّاً يتعالى بينها وبين أهل الدار. حتى الأطفال تواروا من أمامها. لم تقترب منها غير لمياء ابنة زينة الصغرى. دعت شرود إليها الطفلة فاتحة الذراعين. رفعتها إليها، وقبلت الوجنتين المكتنزتين.

بدت زينة مولية ظهرها، لا مبالية. ظلت منشغلة بتفقد القدر على النار والملعقة الخشبية في يدها لا تتوقف عن الدوران.

تركت شرود لمياء تركض إلى إخوتها. استشعرت وحشة باردة مصقعة. وسور الوحدة والصمت يرتفع حولها، رغم ضجة الدار وازدحامها. اقتربت من الموقد سائلة زينة وخديجة الواقفتين أمام النار:

-أآخذ القدر؟.. بخاره صاعد!

أشاحت خديجة بوجهها. تحاشتها زينة وعادت تدير الملعقة في الوعاء..

صفع الصمت شرود.. فقد تعالت اليوم على طقوس الدار ولم تستجب لنداء النساء.. لم تحضر الاجتماع ولم تصغ لأقوال الشيوخ والأتقياء. خلف ضلفة باب المطبخ المفتوحة، رمقتها سلوى، صديقتها الوحيدة في الدار، بطرف عينها، وتوارت عن الأنظار.

تجاهلها خالد منذ عاد. بدا بارداً كالصقيع. ظل في الطابق السفلي

في غرفة الحاجة ونادى طالباً خفّه وملابس الدار. عند العشاء، انشغل بحديثه مع زينة عن زوجها الغائب والأطفال الذين تراجعت نتائجهم المدرسيّة في الامتحان الأخير والطفل الخامس الذي سيهلّ قريباً، وقد تركه لها زوجها نطفة في عطلته السنوية، فحافظت عليه مؤكّدة أن الله حرّم الإجهاض وقتل الأبناء في الأرحام.

صخب الحديث وتداخل، عن حجة الوالدة القادمة ومصاريف البيت الكبير والاستعداد للشهر المبارك الكريم مع قرقعة الملاعق والأطباق ونقاش الأطفال وأصوات البنات الملتفات حول جفنة الكسسي مواصلات الحديث.

لم يلحظ أحد أن الملعقة استكانت، بعد ملعقتين، أمام شرود، وأنها سافرت بشحوبها داخل صدفتها وأغلقت عليها الأبواب. كان الصداع الذي سكّنه الأسبرين لحين، بعد زيارة أمير، قد عاد يدق ناظريها، وصخب الأصوات العالية حولها مطارق حديدية ثقيلة ترتفع وتهوي على رأسها.

أغمضت شرود عينيها وغاصت في صدفتها وعادت تدعو موج البحر يأخذها بعيداً.

في العلّي، استسلمت للظلمة، ولهدوء الليل القادم، وقد أغلقت عليها الباب.. فجأة، سمعت أصواتهن على السلم. ثم اشتعل الضوء، لقد أقبلن مع خالد. فقريباً يبدأ المسلسل المصري. شاهدتهن يدخلن لا مباليات.. متناسيات.. لقضاء السهرة.

الآن، يبيح الليل في القلعة كل متع النساء. فالنفوس راضية مرضيّة. فقد أنصتن بكل خشوع لدرس الشيخ الشرقي الجليل، وصلّين العشاء والنوافل، وأطعمن العائلة الكبيرة وأشبعنها. الآن، يمكن أن يمنح الليل بهجته للنساء، وقد تجمعن حول سيّد البيت، مترقّبات نكاته وحكاياه، وأسدلن النقاب على جلسة المساء التي غابت عنها شرود، متفاديات عنها الحديث، فخالد يجيد السخرية من خوفهن من جهنّم وبئس المصير. ومع ذلك يتركهن لانشغالهن، لا يهمّه اجتمعن في الجامع أو في أحد البيوت. يكفيه أنهن تقيات منشغلات بأمور الدين وأقوال الفقهاء الداعين إلى احترام رجل البيت وولي الأمر وطاعته، بعيداً عن مفاسد العصر وتحرر البنات وفجورهن.

أخوات خالد علمتهن الدروس أن الطاعة هي طريق الأمان والاستقرار في الدنيا والآخرة: طاعة الله ورسوله وأولي الأمر من حكام وأزواج. بها يكون استقرار البيوت والبلدان والدول، فهي الوتد الذي يرفع خيمة الدنيا الفانية ويحميها من جحيم النار. فإذا سقط الوتد، اشتعلت النار وعربد الحريق وحل الدمار المريع.

وخالد المثقل بأعباء سبع نساء، عدا أطفالهن، كان يدرك، ككل أولي الأمر، أهمية الطاعة والاستقرار ويخشى الدمار. فلا يبالي بفحوى جلسات النساء ومصادر دروسهن.. طلعت من جلسات القبور.. أو من عث الكتب الصفراء.. أو جاءت معلبة جاهزة من خلف البحار. يكفيه دخولهن بيت الطاعة راضيات خاشيات.. إلا شرود. ظلت مستعصية على حزب النساء، هاربة إلى قصي الغابات.

وزعت شرود كؤوس الشاي المنعنع والحلويات. ثم انتحت زاوية، وفتحت صدفتها.

تاهت عيناها في مربع الضوء الساحب الأنظار. فجأة، شاهدتها! نفس الملامح.. نفس الشعر.. نفس القامة! اقتحمت السنوات العشر الماضية! وها هو وجهها يطل من الشاشة! هي نفسها! ليلى! صديقة الطفولة الماضية!.. كما رأتها آخر مرّة!.. ليلى من ألف ليلى وليلى ابتلعها المجهول. تركض.. تركض طائرة في الشارع الموحش الخالي خلف أمها الماسكة يدها، تركض بها إلى الرصيف المقابل، الجدران يسودها هباب الحرائق والمعلقات الممزقة بكل الألوان، والكتابات الغليظة السوداء، ورش دماء. الشارع الطويل متاهة، والأبنية خراب.

التفتت الطفلة إلى الوراء.. حدّقت في شرود.. عيناها المستديرتان الكحيلتان مليئتان ذعراً.. نادى وجهها صديقة أيام الأحلام بعدد نجوم السماء.. توقفت أنفاس شرود.. تعلقت عيناها بالطفلة الراكضة.. تصعد الأم الرصيف المقابل حيث ركنت سيارة خالية، تشدّ يد الصغيرة التي لم تطأ بعد الرصيف.. فجأة، يتطاير المشهد وصوت انفجار رهيب يهد الأرض وما فوقها.. تندلع النار تلتهم المكان.. وقد تفجرت السيارة المفخخة تحوّل الشارع البيروتي إلى مقبرة.. اختفت الأم واختفت ليلى.. واختفت بعض الطفولة العائدة لحظات.. في الدخان الأسود الكثيف.. وعاد صوت الرصاص يلعلع، والقناصون يتراشقون من فوق السطوح،

يطلقون النار على كل الصور الماضية.

-الله ينجينا من النار! الله ينجينا من النار!

يبتهل صوت الحاجة الجالسة على حشية الصوف.

ترشف الأفواه كؤوس الشاي. تمتزج أصوات الرشفات بطلقات الرصاص، مشيعة أشلاء ليلى إلى النسيان.

ولكن السنة النار خرجت من الشاشة. أنشبت أظافرها في شرود. بسرعة، هجمت من الشاشة ممحاة كبيرة، تمسح لهيب النار، وتكنس آثار الدمار العربي، ليتألق الوجه الباسم الجميل للمقدمة التلفزية معتذراً عن بشاعة اللقطة الماضية مقدماً أغنية راقصة تهيء الأجواء للمسلسل المصري. لم تعد شرود تشهد المساحة المضيئة المربّعة. فقد شبت فيها النار التي أكلت صديقتها الفلسطينية الراحلة ذات فجر.

ذاك الصباح الخريفي البعيد..

انفتح باب البيت الصغير المجاور..

نطت طفلة صغيرة خفيفة إلى الخارج، في ميدعة المدرسة. فراشتان ورديتان تمسكان شعرها الأسود، وضفيرتان ترقصان على الكتفين.. ظلت تمشي أمامها مع الرجل الأسمر الغريب، حتى بوابة المدرسة. في القسم، فوجئت بها تدخل صحبة المدير والمعلمة تمسك يدها، تقدمها للتلاميذ:

»رفيقتكم الجديدة القادمة من الوطن المحتل فلسطين: ليلى غسان«.

وتجلسها حذوها.

وسريعاً ما اصبحت رفيقة وصديقة تصحبها في ذهابها ورجوعها من المدرسة.

حدثتها عن فلسطين التي لا تعرفها، عن أبيها الذي طرده المحتلون من غزة وهي رضيعة، عن القطر العربي الذي آواهم ثم دعاهم للرحيل، عن أتعاب الرحيل من قطر لقطر حتى حلت عائلتها أخيراً بتونس لتصبح رفيقة لها في القسم سنتين.

قبل الامتحان الأخير، أقبلت ليلى، نجوم تتراقص في عينيها وفرح مرتبك على وجهها. لقد حصل والدها أخيراً على تصريح لزيارة فلسطين ورؤية أمه التي تركها مقهوراً من عشر سنين. لأوّل مرة سترى جدّتها ووطنها. ستذهب إلى غزّة. ستزور القدس والمسجد الأقصى..

وستلعب في بساتين البرتقال وتقطف منها الثمار. ستتأكد ـ وستؤكد لأصدقائها- أن فلسطين ليست وهماً! ليست حلماً!.. وليست ذكرى فقط لأب مطرود منفي!

ليلة السفر وعدتها بإرسال بطاقة من هناك.
ورحلت. لم تكمل امتحاناتها.. ولم تأت البطاقة. ظل البيت مغلقاً شهوراً. ولم تعد ليلى ولا أي فرد من عائلتها. وضاعت عنها الأخبار. أخيراً، أعاد المؤجر فتح البيت المتروك، وعلق لافتة »للكراء«.
ظلت شرود كلما قرأت خبراً عن الاعتقالات والانفجارات والمجازر، ذكرت صديقتها ليلى.. تراها تعود يوماً؟ هل يمكن أن يتركها الإسرائيليون تقيم هناك مع والدها المطرود ولم يكن معه تصريح بأسبوع؟!.. هل تلقاها يوماً في تونس أو في فلسطين أو في مكان ما من العالم؟.. أم تراها استشهدت هناك مع عائلتها بعد إحدى الغارات وعمليات هدم البيوت؟..

مع الأيام، غابت ملامح وجهها في الأعماق ولكنّها ظلّت ـ أبداً ـ طفلة الضفيرتين والفراشات الوردية. طفلة جميلة لا تكبر.. وجرحاً عربياً موجعاً، لا يندمل.ولكنه بدأ، بمرارة، يستسلم للأقدار.

والآن ها هي طفلة شارع الحمراء في بيروت! تسقط عنكبوت النسيان. تفتح الجرح الغائر. تعيد له حرقته وناره.
وها هي ريح الجاهلية القادمة توقظ الذكرى! تصفعها بصور الأطفال الموؤودين في أقصى الشرق، بخراب العواصم العربية المتتالية السقوط! تذكرها بقولة ذاك الأديب المصري البصير الفذ: »بيروت صارت عاصمة الفكر العربي«. ولكن طه حسين لم يكن يدري أن عاصمة الفكر سريعاً ما تصبح عاصمة الجنون. وها هي ذي بيروت!.. تحرق خضرة الجبل ونصاعة الثلج.. تمزق شرائط فيروز.. تقصف ليلى وذكريات طفلة فلسطين.. ها هي تردم الأحلام والأشلاء تحت الركام لتظل الكنائس المدمرة والمساجد المحترقة شاهداً على عالم الدمار العربي الجديد. عالم الدمار أعادها إلى القبر وإلى الصوت الذي زلزل الدار هذا العصر، صارخاً في النساء، دافعاً بها إلى الفرار إلى الشاطئ

المهجور للقاء صديقها الرحيم الوحيد.. البحر.

هل تذكري بظلامه قبراً غدا ينسى من الدنيا به مثواك!

ناح صوته بحديث القبر وفتنة الوجه وسها عن المدن الكاملة والأوطان المتساقطة التي صارت قبوراً.

نادى لإسدال النقاب على الوجوه، ونسي النقاب السميك المسدل على العقول.

لم يصرخ لإطفاء النيران المشتعلة على الأرض، تحرق الأطفال والشيوخ والنساء، وأشعل نار جهنم لتحرق الحريم الناشز وتاركات الحجاب.

عادت ليلى!.. عيناها السوداوان المستديرتان وكلّ أحزان العالم.. والترخيص لأسبوع.. وبيروت والسيارة المفخخة.. وغيفارا تطارده الطائرات.. والحلاج المصلوب المحروق رماداً ينثر من أعلى صومعة.. فرقعات سياط.. قهقهات.. أسوار تنبت في كل مكان.. ترتفع.. تلتف بالسماء. تذبحها لتمطر الدم.. في كل مكان.. شاشة واحدة، شاسعة تجمع كل الصور.. كل الألوان.. والشيخ إمام يغني نائحاً ناعياً:

غيفارا مات غيفارا مات

غيفارا مات آخر خبر في الراديوهات

غيفارا مات

وأحبولة الموت تتدلى.. تلتف حول جيدها.

ثقبت أذنيها قهقهة حادّة عارمة.

شاهدت النساء مغرقات في الضحك لنكتة أطلقها خالد. التفتت بعدها الحاجة إليها قائلة:

-غدوة نزور صبيحة! حضّري نفسك للذهاب معنا! ولدت صبياً. العاقبة عندك.

-متى يأتي ولدك يا خالد ويملأ الدار؟

عقبت الأخت الكبرى ونظرت إلى القميص الواسع المنسدل يخفي حمل شرود الحديث. ثم نهضت وقد علا فستانها الواسع فاضحاً تقدّم الحمل.

-سأتفقّد الأولاد.. تعبت.. تصبحون على خير!.. إن شاء الله يملأ

الأولاد بيتك يا خالد!

عاد طوق الحديد حول رأس شرود، يضيق ويضيق يغوص في اللحم.. والصداع حفارة بلا هوداة.. »قرصي أسبيرين آخرين، ويمضي الألم!«.

تركت شرود المجلس، والصور الملونة الفاقعة تتقافز على الشاشة. ابتعدت خارج العلّيّ. لم تشعل النور. فقد تحول النور سهاماً تثقب العينين. ملأت كوب الماء وابتلعت القرصين.

بعيداً، في الظلمة والكأس في يدها، جاءها أمير.. نظر إليها طويلاً.. وسأل: -أين النغم الجديد؟

ومضى تاركاً خلفه خيط دخان.

أسلمت شرود أجفانها للظلمة.

عمّ تسأل يا أمير؟!.. اللحن الجديد؟!.. أحلامنا القديمة؟!.. وقصيدك المدهش القادم في لحن تغنيه؟!.. عمّ تسأل؟!.. واللحن!.. ليس مجرد نغم نطرب له. إنه لغة إلهية تحكي وتروي ما لا يقال.. لغة تفهمها الأفئدة التائقة إلى الانعتاق، تكسر أغلالها، فتنهض. تتحرّك وتطير في فضاء المدينة، توقظها من نومها قبل أن يغمرها الطوفان.. واللغة الآن مغلولة، مكتومة الأنفاس!

عمّ تسأل؟!.. والنغم الآن للرعب يقطع الأوتار!.. للرصاص يدق مرعباً راشقاً كل المدن الحالمة بنغم جديد؟

وها هي أنغام الرعب القادم! تعبئ البنادق والرشاشات.. ترشق المساجد والكنائس والجامعات وتطلق شرائط الكاسات بظلمات العصر الجديد! أنغام الرعب تبحث عن منافذ المدينة، كل المنافذ، تتسرب منها حتى يكتمل السقوط، واضعاً نقطة النهاية لأسطورة الشرق!

أي نغم الآن يا أمير؟!

والدعوة هادرة لإسدال النقاب على الوجوه والعقول! الدعوة هاجمة لاغتيال الفكر بينما النار تشعل المدن. تحرق الطفولة، وتفجر السيارات على الأرصفة، على أنغام قهقهات النساء المحجبات.

أي نغم يا أمير؟!

وخالد يصرخ بي أثناء نقاش حول كتاب تاريخ غرناطة: »الفنّ

ضيّع الأندلس!« وأراه يخشى لحني يضيعني، فأخبئ لحني بين أضلعي. وأتساءل:

أيمكن أن يكون النغم ـ صوت الإله ـ سر السقوط؟!

آه يـا أميـر!.. أي نغـم تريـد؟ وكـل آلات العـزف مكسـورة! وكـل الأوتار قد قطعت!

فلتسـكت أوتـار القلـب! فـالآن أوان اغتيـال الأحـلام والأنغـام!.. لتسكت!.. ولكن!..

هل يمكن أن تسكت أوتار الروح؟!

دخلت شرود المقصورة بعد نزول النساء.

أخيراً، سكن البيت. لم تشعل النور. انزلقت تحت الأغطية. لم تكن ترغب في غير إخفاء وجهها في ظلمة الوسادة.

في شبه الظلمة، امتدت ذراعاه تطوقانها وأنفاسه الملتهبة تلفح وجهها. فتحت عينيها لتراه. ها هو! صلباً، متوتراً، يدعوها وأنامله تدب دبيب النمل على رقبتها. ترفع شعرها. تنزل بتؤدة على فقرات ظهرها.. تتحوّل إلى أنامل من حرير تكاد لا تلامسها. ولكنّها تشعر بوهجها الكاوي ينفذ إلى أدق أعصابها.

بحذق، يهيئ المواقد ويشعل بمهارة النيران ليضيء الليل بنشوة الجسد. يسقيها أقراص المورفين ويدعوها للسكر والنسيان.. أوجاع العالم ما زالت مبعثرة على الوسادة. لم تفدها سذاجة الأسبيرين. فلتقبل أقراصاً أقل سذاجة، وتستسلم لدعوة الجسد! لتبلع كل أقراص التخدير تسكن الجراح، عسى تحملها أخيراً، غيمة النسيان!

بين الحضور والغياب. تدبّ نشوة الجسد. يأتيها آدمو بصوته الشجي، والليل ينفتح عليها صبية، هناك.. بين النجوم والشجر وشذى الياسمين.. وآدمو يغنيها.

لتتركـــي يـــدي علـــى خاصرتك — *Mais laisse mes mains sur tes hanches*

فيوماً ما، سترحلين — *Un jour, c'est toi qui iras*

نعم، ثأرك ستأخذين — *Oui, tu auras ma revanche*

ستكونين آخر أغنياتي — *Tu seras ma derniere chanson*

La la la la la la

يحملها الصوت الأبح الطروب.. تستسلم للمورفين.. تستسلم للسكر ترفعها الموسيقا إلى سماوات الليل البعيدة.. لتشتعل في الظلمة.. تتناثر كمشاريخ العيد.. تطير نجوماً ملونة راقصة في فضاء الليل وقد شربت حتى الغياب مدامة النسيان.

ولكن!..

يعود الليل يرميها وقد انقطع الشدو. وتعود العينات تنفتحان على خالد.. على السقف المخطط بالسواد.. على المقصورة المغلقة.. تعود تنطفئ النجوم والشجر والياسمين.. يغيب تماماً صدى الغناء.. وتضيع صبية الأمس.. وتمسي هي، »شرود« أو »راضية«.

تعود تستنجد من عريها باللحاف!.. وإذا السقوط موجع، ويقظة السكر مهينة.. وإذا الليل صامت بارد.. وخالد يوليها ظهره، ويغرق في النوم وينطلق في الشخير.

عرّش الصمت في زوايا الدار..

ظلت عينا شرود مفتوحتين، والروح تستيقظ، تدعوها. لقد استوى الطقس، وآن الأوان! فلتفتح أبوابها السرية! فقد أغرق النوم الدار، وأغرق أهل المدينة.

تسللت شرود في الظلمة من الفراش. على أطراف الأصابع خرجت وأغلقت باب المقصورة.

قامت كما تعودت كل ليلة، بعد أن ينام خالد وأهل الدار، تنهض إلى ليلها. تنزع قفازاتها وأقنعتها التي فرضتها الحياة في البيت العتيق. وتعود تفتح أوراق طفلة الأمس الحالمة.. ترشوها بالوعود.. لتبقى دوماً أنيسة ليالي وحدتها. لقد أيقنت أخيراً أنها وحيدة في قاع المدينة العتيقة.. وحيدة في مواجهة أسوارها وشروخها. وخالد كل فيض الرجولة والحياة، الذي أحبت، لم يعد نصف الروح! لم يعد غير خليل الجسد! فلتعد لطفلتها الوحيدة في الأعماق، فيما تبقى من الليل.

ابتعدت مسرعة عن المقصورة. بحذر أضاءت مصباحاً وحيداً في نجفة العلّيّ.

على المنضدة الكبيرة، قرب بعض مطبوعات مكتب الصحافة الذي تشتغل به، ما زالت الملفات مستكينة مع المراسلة التي وصلتها من

الجامعة الفرنسية منذ يومين، فتحتها من جديد. وبدأت تنقل بعض الفقرات الهامة وتكتب عناوين بعض المراجع للبحث عنها صباح الغد. خطّت بعض الأسطر.. ثم توقّف القلم.

تحوّلت الرغبة في العمل إلى إحساس غامر هائل بالضياع. ها هي معزولة عن العالم!.. في بيت ينغلق على صحنه وسقائفه ومقاصيره ويسد نوافذه.. بيت تضحك فيه النساء رضى وطاعة، مسدلات الستائر والحجب، بينما العالم في الخارج يصرخ.. يتمزّق وينهدّ.

وها هو النقاب، يعود أسود.. يطير فوق رأسها بين ضحكاتهن.. ينشب خيوطه مسامير وأظافر في عينيها.. تكتشف أنه رصاصيّ ملغّم مقولب بمهارة فائقة على شكل الرأس.. مطرز نسيجه بإمضاء أرقى دور الشمال.. يسقط فوقها.. يغطي كل رأسها.. ينزل أكثر.. يتحوّل لباساً صلباً كاسحاً.. يلتف حول رأسها وجيدها.. يقتل العنفوان.. ويسيّج كامل الجسد.. ليرمي به في المخازن المغلقة المتروكة للفئران أسفل الدار.

نهضت مذعورة دافعة الرصاص الملتف بها يعيدها إلى دعوة القبر.. هل تذكري بظلامه قبراً.. أسرعت نحو الباب المؤدي إلى السطح المقابل. فتحته. أتاها هواء الليل البارد لاذعاً منعشاً. رفعت بسرعة قدمها إلى الدرجة المقابلة، وكلصّ، تسللت إلى عراء الليل.

رفعت وجهها للسماء. ملأت صدرها بنقاوة النسيم الليلي.

رغم صحن الدار المظلم الخاوي كبئر واسعة مهجورة.

رغم الصمت العميق الموحش الذي غمر الدار، وقد نامت القبيلة، فقد تسرّى إليها قبس انتعاشة منير، وهي تلمح بضع نجوم بعيدة تطل، بين غيوم أواخر الخريف، والسماء تبدو أكثر اتساعاً منها في النهار، زمن الجدران الرطبة المقشرة، والسقوف المقوسة يطل منها أخطبوط الرطوبة وصدأ قضبان الحديد.

ها هي، مع الظلمة الساكنة، قد صارت السماء، أكثر رحمة وليناً ورحابة.

بعيداً عن الدرابزين المطل على صحن الدار، على الدكة

المجلّزة، قرب أصّ الياسمينة النحيلة، جلست شرود، وقد هدأ الصداع، وغابت الضحكات والدعوات وضجة الدار. ونام الموتى تحت الخراب ونامت ليلى في قبرها الضائع البعيد في الأراضي الحزينة.

لامستها زهرة ياسمين صغيرة. التفتت لتراها، نجمة تزهر فجأة.. همس لها الشذى. امتدّت أناملها تحضن الزهرة الصغيرة.. نزلت إليها نجوم الزرقة البعيدة.. تلألأت حولها، وتكاثرت.. تحوّلت داخلها إلى مويجات فضية رقيقة.. تتابعت المويجات.. تلألأت.. ترقرقت.. ووشوشت لها، تغسل القلب تزيل الصدأ.. فتعود تلمع الأوتار وتهفو الأشواق.

همس وتر.. ارتعشت أوتار وهفت.. وانبعث النغم من جديد، رقراقاً حانياً في الأعماق.. أخذ اللحن يموج.. يحملها موجه اللؤلؤي سابحاً بعيداً.. بعيداً.. يعيدها إلى أرجوحة الأحلام.

استسلمت شرود للحن الوليد، واستلقت على الدكة وهامت عيناها في السماء.

فجأة، اشتعل الضوء.

رجفت أجفانها للضوء الحاد القادم من الباب الذي تركته مواربأً، يعشي النظر.. لقد نهض خالد. أسرعت تقف.

-أين أنت؟.. ما الذي تفعلين؟..

بدا خالد قادماً، يفرك عينيه، ومع ذلك سألها والشكّ يصوّب نحوها سهاماً حادّة:

-ماذا تفعلين على السطح بعد منتصف الليل؟.. أجننت؟.. ادخلي!.. واصطفق الباب.

وعلى السطح، طار اللحن، ولم يكتمل. وذبلت زهرة الياسمين الوحيدة. وعادت الظلمة تغمر الدار.

3

من أوراق أمير

مدينة البحر والنوارس دخان.
وأنا هارب.. أركض بعيداً عنهم. أراوغهم.. الطرقات يبللها المطر والخوف..
أسمع هدير البحر الشتائي الصاخب، يصفع وجه السماء.
آه! لو كنت عاصفة من عواصفه لا يحدها مدى!
ولكن!.. حتى البحر سيّجوه!.. حتى الشواطئ المقفرة المهجورة أصبحت تلغّمها عيون الحراس! أركض بعيداً عن الجسر المتحرك المعلق في السماء الغائمة، بحذائي الرياضي.. في اتجاه المدينة العتيقة. وينابير البارد الثائر ينفض خلفي أوراق الشجر الأخيرة وأغصانه المكسرة ويعلى الدخان الأسود في سماء الشتاء.

هارب. في هذا اليوم الأخير من يناير البرد والجوع والغضب.
هكذا كتب في تاريخ المدينة.
يناير يجوع فيأكلنا.
وتقرّ عظامه فيشعلنا.
ويغضب فتطاردنا رياحه وعواصفه، حتى ننكسر ونسقط في الهاويات.
أخيراً، وقفت أسترد الأنفاس..
أمامي انتصب »الباب الجديد« المقوّس الحجري.. التفت خلفي وحواليّ.. ودخلت مسرعاً شبه عتمة الباب العتيق.. انعطفت مع دروبه الملتوية إلى أن وصلت.
كنت أسمع لهاثي عالياً. ضربت الباب بقوّة.. وصعدت درجات السلّم اثنتين، اثنتين. كان جانفي يشتعل داخلي، وقميصي يبلّله عرق بارد

كاو.

ما إن انفتح الباب على وجهها، حتى أسرعت إلى النافذة الوحيدة. رفعت الستار الشفاف. خلف سطوح المباني القديمة الواطئة شاهدتها من ثقوب البرمقلي.. سياراتهم السوداء، تتربّص والدخان ما زال يرتفع من الشرق، يعلن فضيحة مدينة البحر والجنون الحديث.

ها هي روما تحرق نفسها!
فليغضب البحر وليعصف!
ولينفتح باب الجحيم على مصراعيه!

أسدلت ستار النافذة وأوليت ظهري للمدينة
قابلتني شرود، مشدوهة، خائفة، نصف غاضبة.
-ماذا هناك؟.. مالك؟
ارتميت على الأريكة الأرجوانية.
-عطشان!.. أرجوك!.. كأس ماء باردة!
بدا صوتي جافاً، غريباً، أسود!
خرجت وعادت بكأس مترعة. أسرعت أصب الماء في حلقي مرّة واحدة.
ناداني صمت الظلمات.
-أمير!.. تكلّم.. مالك؟..
-أنا بخير! بخير!.. هاتي قهوة!.. وكأساً أخرى!.. بل قارورة ماء! وقدحت النار أشعل سيجارة.
تعالى في وجهي الدخان. وخرجت شرود ـ مرغمة ـ تعد القهوة.
من خلال الدخان، بدت الصحف مبعثرة على المنضدة الصغيرة بين الأريكتين، والعناوين الكبيرة السوداء على صفحاتها الأولى، فاجعة.

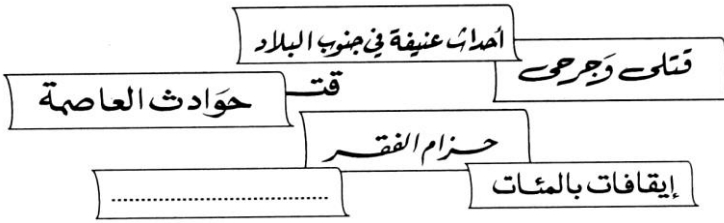

نهضت ناقماً، وعدت ارفع الستار عن النافذة.
ما زالوا هناك! الكلاب الجائعة!.. السواد يغلف الوجوه والأجسام والسيارات متربصة.
عدت في انتظار القهوة، أحرق الدخان، وعيناي تلهبان كلمات الصحف.

.. علمنا أن وزارة الشباب والرياضة أغلقت المعهد القومي للتربية البدنية بقصر السعيد إلى أجل غير محدد. السبب يعود إلى توالي الإضرابات التي يقوم بها الطلبة.

قلب صفحات »الحرية«.. قرأت:

بلاغ من الهلال الأحمر التونسي

.. ..

قفزت على الكلمات المستنجدة:

نظراً لحاجة المستشفيات إلى الدم، يناشد الهلال الأحمر التونسي ذوي البر والإحسان، التوجه إلى مركزه بنهج إنفلترا ومختلف المستشفيات للتبرع بدمهم. والله لا يضيّع أجر المحسنين.

تهالك رأسي المتعب على المسند. دعوت الظلمة ترحمني من هذا الخراب الذي يجرون إليه الوطن.
أخيراً!.. عبق القهوة النافذ!.. يشق ظلماتي.
تعالى البخار الساخن المنعش في وجهي، وشرود تنحني قليلاً تقرب من يدي الفنجان المذهّب الصغير في صحنه الخزفي الأبيض.

-والآن؟ ألا تتكلّم؟!.
رفعت الفنجان إلى شفتي. أخذت جرعة حارقة. في صمت، وضعت الفنجان على المنضدة، وكرعت الماء من القارورة أكاد أفرغها. ظلت ترمقني متوجسة، عيناها مترعتان بالسؤال، تدعو إشفاقي وبوحي، وحزن شفيف غامض يمتد بيننا.
-أجل يا شرود! كما حدست!.. مطارد أنا!.. مطارد مرّة أخرى!.. فماذا تريدين؟

هذا الصباح أتاني سالم. وقال لي:

»الليلة الماضية هجموا على المبيت الجامعي بعد منتصف الليل حاولوا القبض على الهاشمي. تناهى إليهم انه يوزع منشورات تدعو للإضراب.. (لم يكن سالم يدري أن مسودة المنشور أنا كاتبها). حاصروه.. ولكنّه ألقى بنفسه من الطابق الثاني.

انكسر عموده الفقري. قد يمضي بقية عمره معوقاً. قلبوا غرفته وبقيّة الغرف.. بعثروا الدروس والمحاضرات والكتب.. ألقوا »الحلاج« و»غيفارا« و»نيرودا« و»رامبو« و»درويش« على الأرض مع معادلات الحساب والهندسة.. لم يتركوا أحداً يفلت.

ساقوا الطلبة من الطوابق الأربعة إلى الساحة.. ضربوا سلوى الساحلي لأنها رفضت النزول.. دفعوها على السلم. انفتح جرح غائر في جبينها وتفجر الدم من وجهها على الدرج.

ساقوا الجميع إلى الساحة وأحاطوا بهم رافعين الرشاشات ضاربين كل من يتلكأ باللكمات والأحذية.. أجبروهم على السجود وغرس الرؤوس في التراب وأكل الحشيش.

في برد يناير، في العراء، الطلبة كانوا بمناماتهم وبعضهم في ملابسهم الداخلية؟ ظلوا إلى الفجر في الصقيع. الراس التي ترتفع تسقط عليها الماتراك، والجمازت الحاقدة«.

ما إن سمعت الأخبار حتى أسرعت مع سالم إلى الجامعة. كانت الريح باردة هناك. تطوّح بالشجيرات القليلة في الساحة. وحلقات الطلبة تتكاثر وتتسع تحت السماء الكالحة.. الجامعة تغلي.. والأخبار تتواتر.. أحداث الجنوب.. سقوط القتلى.. هجوم على مركز البوليس.. اضطرابات في العاصمة.. اعتقالات الطلبة.. والقوميين.. واليساريين.. وضجت الجموع وارتفع هادراً النشيد الوطني.

كانت الريح تحمل صدى النشيد إلى القصور البعيدة.
نموت، نموت، ويحيا الوطن
وأعين البوليس تتضاعف حول كل مداخل الجامعة..
ويناير البرد والجوع يشعلنا ويدعونا
أخـــرج كـــالريح ولا تَهَـــبْ
يـــا جيـــل النخـــوة والغضـــب.

وتـــــــــــــــــــــــدفقْ
وتـــدفقْ نهـــراً مـــن لهـــب!

تهاطل المطر بقوة، ومع ذلك خرجنا في اتجاه الجسر المتحرك. كانت الريح تضربنا عاصفة مثلجة. ومياه القنال تركض عنيفة مائجة إلى البحر.

ما إن دخلت أفواجنا الأولى الجسر المتحرّك، حتى طوقونا. نزل الجراد الأسود من عشرات السيارات المتربصة. هجم يأكل الأحلام والأغنيات. يفجر القنابل المسيلة للدموع.. يضرب بالماتراك من كل جانب. والجسر، الدرب الوحيد للمدينة، انغلق. وحوصرنا بين السماء الماطرة وسراط الدخان والجنون.

في غمرة الفوضى والدخان. قدر البعض على اختراق سور الجراد والنفاذ بأعجوبة إلى الضفة. والبعض الآخر ظل عند أعتاب الجامعة لم يبلغ الجسر والكثيرون ألقوا في سياراتهم إلى المجهول.

.. انتبهت فجأة أن مسودة المنشور لا زالت في جيب سترتي الداخلي في كنش مذكراتي الصغير. نسيتها عند خروجي مسرعاً مع سالم في هذا الصباح الباكر.. لذت بقارورة الماء. شربت وما ارتويت.

-يا إلهي! أكمل!.. ماذا فعلت بعدها! كيف قدرت على النجاة؟

-ابن مدينة عارف بخباياها!

في غمرة الفوضى والدخان، تسلقت حاجز الجسر المعدني، كنت قريباً من المدخل. قفزت إلى الشاطئ المهجور الممتد تحت الجسر. هناك اختفيت عن العيون. بعض قوارب الصيادين القديمة راسية على ضفة القنال. وضعت في يد صياد عجوز بعض ما في جيوبي من نقد، رفع مجدافه وانطلق بنا القارب إلى الضفة المقابلة.

هناك! بدت المدينة بأبنيتها البيضاء الساكنة تحت خيوط المطر المتلاحقة، جزيرة فضية خالية مستسلمة، تلتمع في صمت، ملتحفة أحزاناً غامضة سرية، رغم خضرة الأرض المغسولة حولها، وزرقة الموج تغسل الضفاف وتنشر زبدها الأبيض في وجهها.

فجأة من عرض القنال شاهدته.. هناك في الأعلى على الجسر المقوس الشامخ في الزرقة الرمادية. صالح الحاميّ! عرفته بسترته البنية القديمة ودجينه الحائل اللون، وقامته المديدة النحيلة. رفيقي

الجنوبي الذي لم يكمل العشرين. صالح الأنف الشامخ الأبي يتهاوى ممسكاً بطنه بين عملاقين يكسوهما السواد.. يسقط متوجعاً ويختفي عن الأنظار. وقفت صارخاً حانقاً: الكلاب!.. الكلاب!

لم يسمعوني.. كانت الريح المعاكسة أقوى، وصوت المجداف لا مبالياً.. يضرب.. رتيباً.

ظلت عيناي مشدودتين إلى الجسر والصرخة تشق مني الصدر وزورق القدر يمضي بي بعيداً.. لا يرتفع صوتي إليهم ولا يدي.. يذبحني عجزي.. أعود أصرخ بهم: دعوه يا كلاب! دعوه يا أنذال!

لا يجيبني غير عصف الريح والمطر.. والهمهمات الغامضة للصياد الأخرس العجوز.

من جديد شاهدته يحاول الوقوف. يرتمي العملاق الأسود عليه. بِغُلٍّ، يرميه على الحاجز الحديدي للجسر. يتلقاه الثاني بلكمات متوالية أسفل البطن.. يعود يهجم الأول عليه، يضرب رأسه بسياج الحديد.. يسقط من جديد. ترفعه أيديهم ترميه لأنياب القضبان تفجّر دمه.. ينزف الجسد.. تنزف السماء. يجري صالح على دمه. يزج به داخل سيارة رابضة. وتظل بعض سيارات، سُمح لها بالمرور، تقطع الجسر.. ترقب المشهد بصمت، وتواصل المسير.

كان المطر قد كفّ عن النزول، وأنا في مؤخرة القارب. عيناي نار. وأسناني تقضم شفتي السفلى، تكاد تقطعها، والصياد العجوز يجذف في المياه المثلجة، ضدّ التيار.

وهناك، على الجسر المعلق فوقنا، ظلت قطرات دم تتقاطر من الحاجز المعدني إلى مياه القنال الهادرة. والريح تعصف بالبحر والدنيا، والمدينة النورسية القادمة ببيوتها المبتلة البيضاء، خالية الدروب، ما زالت نائمة في أحزانها الغامضة.

ها أنا أخيراً هنا! في هذا البيت القديم الكئيب. الأبواب مغلقة والستائر مسدلة على النافذة الوحيدة الضيقة. يدي تقبض على الفراغ. والصمت يهدر بيننا. والمجهول القادم يزيد عيني شرود الطويلتين قتامة تلتمع بالخوف الندي.

تاهت نظراتها بعيداً ورأسها يسترخي على مسند الأريكة, همست:

-.. كان الجسر حلمنا!
بدا وجهها شديد البياض والشحوب.
قلت: كان!!.. ولكنّهم حوّلوا الحلم لعنة!
.. هذا الجسر!.. بوابة مدينة البحر والنوارس!
لقد أرادوه في البداية بوابة يصطادون منها كل المخالفين. فيه أقفال كل الدروب! الجغرافيا سلّمت لهم من البداية المفاتيح. والجامعة! ألم تتساءلي يوماً: لِمَ قسّمت كلياتها بين العاصمة والمدينة؟.. لم أقيمت هناك؟ في الأحواز؟ معزولة، تستنشق كل يوم روائح النفط والدخان والإسمنت من المعامل القريبة، تحقق للشباب أرضية مريحة لتفشي السرطان وأمراض التنفس المزمنة، تحوّل العنفوان والتمرّد إلى ذبول دائم واستسلام مقيت.. إنها هناك! البحر يمد ذراعه عبر القناة حتى البحيرة البعيدة، فاصلاً بينها وبين المدينة. والطلبة، إن ارتفعت أصواتهم وأفكارهم، إن تجاسروا وتظاهروا، لا مهرب لهم ولا نجاة! البحر أمامهم وعراء السهول وراءهم!.. من أعلى الجسر، المكبرات تلتقط وجوههم واحداً واحداً. تقتحم حجراتهم. تحفر رؤوسهم وأوراقهم، تعتقل الأفكار والأحلام.. وهذا الجسر، القائم بأناقة مريبة فوق المياه هو المصيدة الأخيرة!

.. ومع ذلك.. كان الجسر حلمنا!
ولكنهم يمسكون الأحلام. يضعونها في أقفاصهم.. يقصون أجنحتها، ويحولون على مقاسهم، لصالحهم، كل الأحلام.
كنا نسمع الكبار يتحدّثون:
»المدينة في عزلة، منسية، مهملة، مع كل هذا الجمال الأخاذ الذي وهبه الله لها: جبل وبحر وشواطئ! خضرة وأنهار!.. ولكنهم عاقبوها بإهمال قاتل منذ أن شارك بعض مواطنيها في تلك المحاولة لقلب الحكم.. تركوها لمزاج الطبيعة ولما أبقاه لها الفرنسيون.
ومع ذلك.. آه! لو يقيمون جسراً يربط بينها وبين باقي البلاد!«
-»آه لو يقيمون الجسر! كان يقول أبي، ستنهض من سباتها، تنفتح على العالم، تتجدد وتزدهر وتلحق بباقي المدن الساحلية الأكثر حظاً! تلك المدن التي تجمعت فيها جل مشاريع البلاد!«.

كانت شرود تمسكني من يدي مع ابن عمي. الأرض تحت أقدامنا

الصغيرة رحبة معشوشبة. نتملص من يدها. نتراكض حولها.. تحذرنا وتدعونا للهدوء. نعود نقف معها في الانتظار.

في الضفة المقابلة، الأرض المخضرة متروكة لنزوات الطبيعة. بضعة بيوت صغيرة واطئة متناثرة. والبحر يمتد يفصل بيننا. أرنو إلى البعيد حيث يرسو البطاح. أعود أرفع رأسي إليها ضجراً من الانتظار.

-متى نركب!

تقول: -حين يأتي البطاح.

أتخلّص من يدها.. أبتعد عن الصغار وأركض للضفة حيث المنحدر الصخري والماء المتلألئ الراكض إلى البحر. تجري خلفي. تشدني من ميدعتي السماوية التي تلبسني إياها أمي في كل الأوقات، لتحافظ على ثيابي من التلوث وكثرة الغسيل.

-تعال! ستغرق!.. البحر عميق!

أظل ألهو مع ابنَي عمي محمود وسعيد. ومن حين لآخر أرقب الضفة الثانية حيث يرسو البطاح منتظراً اكتمال حمولته من السيارات والحافلات والدراجات والعربات والراجلين الداخلين المدينة.. أملّ الانتظار وشوقي يكبر للوصول إلى هناك، حيث بيت عمي الذي استضفنا ابنيه. أتخلّص من يد شرود وأنا أشاهد المركبة العائمة قادمة على مهل. ما إن تلفظ سياراتها وعرباتها وراكبيها حتى نسرع بالركوب. تتمايل الأضلاع الخشبية في القاع تحت أقدامنا. أخاف وأنتشي. وأنطلق مع ذلك، فرحاً إلى ممر الراجلين، أمام النوافذ المفتوحة. نقف. نتفرج على المدينة الراحلة والمياه العميقة الراعشة تأخذنا بعد طول انتظار إلى الضفة الثانية.

γ γ γ

فتحت شرود الباب فجأة، ودخلت الغرفة، حاولت إخفاء أوراقي حتى تكتمل. ولكن شرود ضبطتني وأنا أرسم بأقلامها الطويلة الملونة

جسراً عالياً فضياً وحوله طيور ذهبية، تركض تحته المياه الزرقاء المتموجة مع أسماك صغيرة من كل الألوان.

أشرق وجهها ضاحكاً:

-ما أجمل رسمك! إنك حقاً فنان صغير!

رفعتني إليها وقبلتني وضحكتها ترن عالياً. ثم علقت رسمي على الجدار.

أين رسمي القديم الآن؟

اختفى الرسم والضحكة مع الأطفال الفرحين بركوب البحر واللهو بين الضفاف.. واختفت الضفاف المخضرة الوادعة.. وسحبت المركبة العائمة إلى مستودعات النسيان.. وقام البناء الصخري رافعاً جسراً من حديد. وها أنا أعود! أقطع الضفاف هارباً إلى قاع المدينة!

لا جسر الحلم يعيدني. ولا مركبة الصبي المتهادية على المياه!

أعود محتمياً بصخور الشاطئ إلى ضفتي. مهدداً في زورق صياد أخرس عجوز.

وجسر المدينة الحديث، الجسر المتحرك الأنيق الشامخ في سماء عاصفة دوماً بالرياح، يصبح سجناً للسماء!.. للبحر!.. وللأرض التي بدأت تفيق!

رفعت فنجان القهوة أجرعه حتى الثمالة.

وأنا أضعه على المنضدة الواطئة، لمحت أصابعها الرقيقة تنقر بتوتر الحافة الخشبية المستديرة.

استكانت كفها على ظهر يدي. كانت شديدة البرودة.

التمعت عيناها بالعتاب، وهي تقول:

-إني أخشى عليك!.. لقد أصبحت تخيفني!

رفعت يدها عن يدي.

-اطمئني!

وأضفت مستخفاً:

-لقد تعودت المخاطرة!

حاولتُ طرد الخوف الداهم في نظراتها. ولكنّ الخوف ظل يصوب نحوي سهامه. نهضت من مجلسي وانفجر صوتي محتداً:

-يجب أن تعرفي أني ما عدت طفلاً! ما عدت طفلاً!.. ومع ذلك،

اطمئني! لا سلاح في يدي ولا ممنوعات!

رمقتني، ونظرة واهنة مليئة سخرية سوداء في عينيها من جوابي، أو هكذا بدا لي.

.. لا سلاح في يدي ولا ممنوعات! وتناسيت أن الأحلام المعلنة والأفكار الجديدة والكتب والأشعار.. ممنوعات! تناسيت أننا في العصر الأمثل للممنوعات!.

خطوت صوب النافذة.

من هناك، من البحر البعيد الذي يصلني هديره، جاءني صوت قديم حبيب مليء بالتحدي..

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء

أرنو إلى الشمس المضيئة هازئاً السحب والأمطار والأنواء

أكان ذاك صوتها؟!

وإذا لم يمكن من الموت بدّ فمن العجز أن تموت جبانا

تدعوني شرود. تجلسني أمامها. وتغلق الباب.

-سأعلمك أجمل الأشعار!.. هيا، أعد ما أتلو عليك.

»أرنو إلى الشمس المضيئةً بالسحب والأمطار والأنواء..«

تتوقف.

-لا! ارفع رأسك إلى السماء!.. يدك إلى أعلى!

إن الشاعر هنا يتحدى السحب والأمطار والعواصف..

.. لا تنظر إلى الأرض.

.. ارفع رأسك!

.. اسخر من كل ما يعيق!

.. كن كالنسر فوق القمة الشماء!

أعيد على معلمي في المدرسة ما حفظتني شرود. يدعو المعلمين الآخرين، يفاخر بي، ويجازيني صوراً صغيرة ملونة لأزهار وحيوانات وأسماك. يزيدني علامات في الامتحان، ويطلب من التلاميذ محاكاتي في الإلقاء.

أينع الدرس وأخصبت الغابات، وارتفع النسر في سمائه، ولكن،

أين صوت المعلم القديم؟

الآن، أيـن صـوت شـرود الآسـر المتحـدي؟ وكـل ذلـك التـوق والعنفوان؟! واجهتها مثبتاً نظري في عينيها الذابلتين.

-ماذا أصابك يا شرود؟

أين القصائد القديمة؟.. أين قصص البطولـة والفداء؟ مـا بـك؟.. لم تستسلمين للحصار الآن؟

علا صوتها فجأة منفعلاً:

-أنا لا أستسلم! لا أستسلم!.. وأريد أن أراك قوياً مقداماً. ولكن من حقي أن أخاف عليك وأحذرك من السقوط!

انقطع صوتها مختنقاً بدمع مكابر وهربت نظراتها إلى البعيد.

وغرقت في ثمالة قهوتي.

طاردنا البوب مرات عدنا نتظـاهر ونرفـع أصـواتنا بالغضـب.. أوصـوهم بالحـل الأفضـل: فـتح بوابـة الجاهليـة، لـيهجم عـث الكتـب الصـفراء يملـؤون بـه رؤوس البسـطاء، يـدفعونهم إلـى الواجهـة ثـم يختفـون مـن الصـورة، يحوّلـون الصـراع، فـي انتظـار إحكـام خطـط المستقبل. يترقبـون سـقوط القتلـى مـن الجـانبين وتبقـى الأيـدي ـ خلـف بلـور القصـور المصـفح ـ نــظيــف-ــة! ترسـل رجالهـا فقـط لإعـادة النظام ونشر الأمن في البلاد.

إنها الطريقة المثلى »الجديدة« لضربي! لضربك! لقطع رأس كل عنفوان. لا تكفـي »مـاتراك« البـوليس وهـراوات البـوب وسلاسـله وكـل وسـائل التعذيب. هنـاك مـاتراك أخـرى أقوى وأدهـى وأبعد مـدى: الـدين الملفوف في عبـاءاتهم!.. اليسـاري كـافر.. الغنـاء حـرام.. الشـعر غوايـة.. الرقص كفر!..

ومـع ذلـك، كنـت أرقـص وعمتـي التقيـة تصـفق لـي، وتتـرنم مـع المنشـدين. كنـت أحلـق بجسـدي وأطيـر قبـل أن يأخـذني الشـعر لتطيـر روحي على وقعه. ولم يكن أحد يزعم وقتها أن ذاك حرام.

مالك صامتة يا شرود؟

تراني أكذب؟ أبالغ؟

.. ..

.. تصمتين!..

ولكني أقرأ عذاب عينيكِ. أسمع صرختكِ المكتومة بين الضلوع وأدرك أنهم وصلوا إليك أيضاً. بطريقة من الطرق. وصلوا إليك ليجبروك على الصمت والرضوخ.

ولكن، لأجلك، لأجلي!.. لأجل رفع يد الموت عن المدينة، سأظل على دربي لا أتراجع!

.. لنا أصوات تنبئ بالآتي! لنا قصائد وألحان تعيد صياغة الكون لا تدميره! فلماذا يتعقبوننا؟ في الجامعة والشوارع والقفار!.. لماذا يتعقبوننا. ونحن لا نملك غير الأحلام والكلمات؟

بدت الزاوية داكنة بالرطوبة خلف شرود، من خلال بقايا الضوء القادم من النافذة المحاصرة بقضبان الخشب القديم. من هناك، رأيت الجراد قادماً، يحلق فوق البحر وفوق الساحات والدروب.. يتساقط من أجنحته عث الرطوبة والقدم.. يتطاير العث يحوم حولنا.

نهضت قائماً نافضاً العث المتساقط وطحالب الرطوبة التي عششت في جدران المدينة وأكلتْ ألوان هذا البيت وكلسه، وبدأت تتسلل لتسكن العروق والأعصاب.

بدأ البيت يظلم، وليل الشتاء ينزل ويعود ماطراً على المدينة. صرخ الرضيع الحديث الولادة داخل المقصورة. نهضت شرود مسرعة إليه. وأزّ عن يميني الباب وانفتح.

وقف السيد خالد الحديدي بمعطفه الرمادي الطويل ومطريته المبللة تقطر ماء.

-أهلاً سي خالد! كيف حالك؟

-مرحبا أمير! الحمد لله أنك بخير!.. لا شك، علمت بما حدث.

-أجل.

-إنهم يطاردون الطلبة كالذباب!.. أعرف أنك عاقل ووارع. إحذر هؤلاء المغرورين! وانتبه لدراستك!.. ليتركوا السياسة لأهلها!.. ما لهم وثورة الجنوب وحرب لبنان، وأمريكا؟ لقد أحرقوا علمها أمام السفارة في العاصمة. ما الذي سيفيدهم هذا التحدي الأخرق المجنون؟

نزع سي خالد معطفه. أخذته عنه شرود مع المطرية السوداء.

-لقد اعتقلوا اليوم كل من ساهم في توزيع المناشير الداعية للإضراب عن الدروس، ومجموعة كبيرة من مدّعي الثورية واليسارية! إنهم يفسدون العباد والبلاد!

.. في يوم واحد، وزعنا كل المناشير وعدنا نتابع الدروس والمحضرات..

اقتربت من باب العليّ المقوس العتيق.

-آسف لذهابي الآن!.. ولكن عندي دروس للإنجاز.

أسرعت خطواتي نازلة السلّم المعتم.

وفي الأعلى، انطلقت ـ من التلفاز ـ أغنية راقصة تسلي السيد خالد. وفي الطابق الأول، ارتفع صوت إحدى النساء بأغنية عن تاركات الحجاب سرقت لحناً لفريد. وشرود، مضت من تغيير ملابس الرضيع إلى المطبخ تعد العشاء.

انفتح باب السقيفة أمامي على سيول المطر وظلمة الأزقة. ومع ذلك، خرجت راكضاً، قافزاً على المياه الجارية، سائلاً الدروب الفائضة: كيف ستكون المدينة غداً؟

هامش
2

آه يا ملكة الطرب!
كيف تصبح الجراح معك عذاباً مغموساً باللذة؟!
يا ملكة الطرب!..
خذيها مع صوتك للأقاصي!
علّ الرؤيا تعود من جديد!

غصبت روحي على الهجران
وإنت هواك يجري في دمي
وقلت أهرب للنسيان
لما بقى النسيان همي

ليلة الأربعاء، ليلتها.
ليلتك.
صوت أم كلثوم واللحن الشجي.
وضوء المصباح الواطئ ينوس.
وأنت وحدك.

»وقلت أقدر في يوم أسلاك.
وأفضّي من الهوى كأسي.
لقيت روحي في عز جفاك
بفكر فيك وأنا ناسي«.
تأخذك معها على الأثير.
ترحلين عن القلعة الحجرية المغلقة في هذا الليل الطويل.. تتركين خالد للقبيلة، وزهر، للسبات.

تتركين القلعة التي تتالت فيها أعوام القحط لعاداتها وطقوسها. تتناسين أعوامك الخمس، هنا، وترحلين مع النغم.

غصبت روحي على الهجران
وإنت هواك يجري في دمي

ولكن، إلى متى هذا الشوق الجارف العارم المجهول يعصف بك يا شرود؟

إلى متى؟ وهذا الشوق الراعش يأخذك، لا ينطلق؟! ولا يرحل؟! والجسد يمسي كالخيال. ومع ذلك، ينوء بكل أوجاع المدينة.

إلى متى تهربين؟

والرضيع الهزيل يدعوك دوماً باكياً. فلا تملكين له غير حليب الأمومة المشوب بمرارة لم يعرف أسبابها الطبيب!

إلى متى ترددين؟

وقلت أهرب للنسيان
لما بقى النسيان همي؟!

ودمعة السكر الموجع اللذيذ تنحدر، تكتب على دفتر يومياتك المفتوح؟!

4

من مذكرات شرود

.. .. 3 فيفري 1980

.. أخيراً، رحل جانفي الماطر العاصف.
رحل جانفي التمرد والثورة والدماء عن المدينة، وعن الوطن الحزين، ليتركنا لرجفات البرد الفيفري، والمخاوف القادمة.
ترك ساحات الوطن تلمّ أشلاءها، والمدينة تلملم أحزانها.. احتفى ابن عمي عماد بعد إحدى المظاهرات. كسرت يد جارتنا أسماء بضربة عصا أحد الحراس.

بدأ جانفي بأوجاع متقطعة متنامية، انتهت بصرخات الولادة في يوم صاخب لم ينقطع فيه المطر. يومها، في أوّل جانفي، ولد زهر، مع قدوم الليل الشتائي، بعد يوم عسير.
أفقت من وهن الولادة على حوادث جانفي الأخيرة وثورة الجنوب التي امتدت لكامل البلاد. وصل الشرر حتى مدينة هيبو. أضرب الطلبة والتلاميذ وتفجرت المظاهرات. وجاءني أمير لاهثاً مطارداً من الحراس.
من يومها لم أره.
حدثتني سلوى أنها شاهدته ماراً أمام المعهد. سلمت عليه فسألها عني وعن زهر ومضى مسرعاً.
حين زارتني عمتي عائشة، طمأنتني على سلامته ونصحتني بعدم الخروج والمخاطرة بصحتي في هذا البرد القارس، فما زلت حديثة عهد بالولادة.

وزعت شرود كؤوس الشاي المنعنع والحلويات. ثم انتحت زاوية، وفتحت صدفتها.

تاهت عيناها في مربع الضوء الساحب الأنظار. فجأة، شاهدتها! نفس الملامح.. نفس الشعر.. نفس القامة! اقتحمت السنوات العشر الماضية! وها هو وجهها يطل من الشاشة! هي نفسها! ليلى! صديقة الطفولة الماضية!.. كما رأتها آخر مرّة!.. ليلى من ألف ليلى وليلى ابتلعها المجهول. تركض.. تركض طائرة في الشارع الموحش الخالي خلف أمها الماسكة يدها، تركض بها إلى الرصيف المقابل، الجدران يسودها هباب الحرائق والمعلقات الممزقة بكل الألوان، والكتابات الغليظة السوداء، ورش دماء. الشارع الطويل متاهة، والأبنية خراب.

التفتت الطفلة إلى الوراء.. حدّقت في شرود.. عيناها المستديرتان الكحيلتان مليئتان ذعراً.. نادى وجهها صديقة أيام الأحلام بعدد نجوم السماء.. توقفت أنفاس شرود.. تعلقت عيناها بالطفلة الراكضة.. تصعد الأم الرصيف المقابل حيث ركنت سيارة خالية، تشدّ يد الصغيرة التي لم تطأ بعد الرصيف.. فجأة، يتطاير المشهد وصوت انفجار رهيب يهد الأرض وما فوقها.. تندلع النار تلتهم المكان.. وقد تفجرت السيارة المفخخة تحوّل الشارع البيروتي إلى مقبرة.. اختفت الأم واختفت ليلى.. واختفت بعض الطفولة العائدة لحظات.. في الدخان الأسود الكثيف.. وعاد صوت الرصاص يلعلع، والقناصون يتراشقون من فوق السطوح، يطلقون النار على كل الصور الماضية.

-الله ينجينا من النار! الله ينجينا من النار!

يبتهل صوت الحاجة الجالسة على حشية الصوف.

ترشف الأفواه كؤوس الشاي. تمتزج أصوات الرشفات بطلقات الرصاص، مشيعة أشلاء ليلى إلى النسيان.

ولكن السنة النار خرجت من الشاشة. أنشبت أظافرها في شرود. بسرعة، هجمت من الشاشة ممحاة كبيرة، تمسح لهيب النار، وتكنس آثار الدمار العربي، ليتألق الوجه الباسم الجميل للمقدمة التلفزية معتذراً عن بشاعة اللقطة الماضية مقدماً أغنية راقصة تهيء الأجواء للمسلسل المصري. لم تعد شرود تشهد المساحة المضيئة المربّعة. فقد شبت فيها النار التي أكلت صديقتها الفلسطينية الراحلة ذات فجر.

ذاك الصباح الخريفي البعيد..
انفتح باب البيت الصغير المجاور..
نطت طفلة صغيرة خفيفة إلى الخارج، في ميدعة المدرسة. فراشتان ورديتان تمسكان شعرها الأسود، وضفيرتان ترقصان على الكتفين.. ظلت تمشي أمامها مع الرجل الأسمر الغريب، حتى بوابة المدرسة. في القسم، فوجئت بها تدخل صحبة المدير والمعلمة تمسك يدها، تقدمها للتلاميذ:
»رفيقتكم الجديدة القادمة من الوطن المحتل فلسطين: ليلى غسان«.
وتجلسها حذوها.
وسريعاً ما اصبحت رفيقة وصديقة تصحبها في ذهابها ورجوعها من المدرسة.
حدثتها عن فلسطين التي لا تعرفها، عن أبيها الذي طرده المحتلون من غزة وهي رضيعة، عن القطر العربي الذي آواهم ثم دعاهم للرحيل، عن أتعاب الرحيل من قطر لقطر حتى حلت عائلتها أخيراً بتونس لتصبح رفيقة لها في القسم سنتين.
قبل الامتحان الأخير، أقبلت ليلى، نجوم تتراقص في عينيها وفرح مرتبك على وجهها. لقد حصل والدها أخيراً على تصريح لزيارة فلسطين ورؤية أمه التي تركها مقهوراً من عشر سنين. لأوّل مرة سترى جدّتها ووطنها. ستذهب إلى غزّة. ستزور القدس والمسجد الأقصى.. وستلعب في بساتين البرتقال وتقطف منها الثمار. ستتأكد ـ وستؤكد لأصدقائها- أن فلسطين ليست وهماً! ليست حلماً!.. وليست ذكرى فقط لأب مطرود منفي!

ليلة السفر وعدتها بإرسال بطاقة من هناك.
ورحلت. لم تكمل امتحاناتها.. ولم تأت البطاقة. ظل البيت مغلقاً شهوراً. ولم تعد ليلى ولا أي فرد من عائلتها. وضاعت عنها الأخبار. أخيراً، أعاد المؤجر فتح البيت المتروك، وعلق لافتة »للكراء«.
ظلت شرود كلما قرأت خبراً عن الاعتقالات والانفجارات والمجازر، ذكرت صديقتها ليلى.. تراها تعود يوماً؟ هل يمكن أن يتركها الإسرائيليون تقيم هناك مع والدها المطرود ولم يكن معه تصريح

بأسبوع؟!.. هل تلقاها يوماً في تونس أو في فلسطين أو في مكان ما من العالم؟.. أم تراها استشهدت هناك مع عائلتها بعد إحدى الغارات وعمليات هدم البيوت؟..

مع الأيام، غابت ملامح وجهها في الأعماق ولكنّها ظلّت ـ أبداً ـ طفلة الضفيرتين والفراشات الوردية. طفلة جميلة لا تكبر.. وجرحاً عربياً موجعاً، لا يندمل.ولكنه بدأ، بمرارة، يستسلم للأقدار.

والآن ها هي طفلة شارع الحمراء في بيروت! تسقط عنكبوت النسيان. تفتح الجرح الغائر. تعيد له حرقته وناره.
وها هي ريح الجاهلية القادمة توقظ الذكرى! تصفعها بصور الأطفال الموؤودين في أقصى الشرق، بخراب العواصم العربية المتتالية السقوط! تذكرها بقولة ذاك الأديب المصري البصير الفذ: »بيروت صارت عاصمة الفكر العربي«. ولكن طه حسين لم يكن يدري أن عاصمة الفكر سريعاً ما تصبح عاصمة الجنون. وها هي ذي بيروت!.. تحرق خضرة الجبل ونصاعة الثلج.. تمزق شرائط فيروز.. تقصف ليلى وذكريات طفلة فلسطين.. ها هي تردم الأحلام والأشلاء تحت الركام لتظل الكنائس المدمرة والمساجد المحترقة شاهداً على عالم الدمار العربي الجديد. عالم الدمار أعادها إلى القبر وإلى الصوت الذي زلزل الدار هذا العصر، صارخاً في النساء، دافعاً بها إلى الفرار إلى الشاطئ المهجور للقاء صديقها الرحيم الوحيد.. البحر.

هل تذكري بظلامه قبراً غدا ينسى من الدنيا به مثواك!

ناح صوته بحديث القبر وفتنة الوجه وسها عن المدن الكاملة والأوطان المتساقطة التي صارت قبوراً.
نادى لإسدال النقاب على الوجوه، ونسي النقاب السميك المسدل على العقول.
لم يصرخ لإطفاء النيران المشتعلة على الأرض، تحرق الأطفال والشيوخ والنساء، وأشعل نار جهنم لتحرق الحريم الناشز وتاركات الحجاب.

عادت ليلى!.. عيناها السوداوان المستديرتان وكلّ أحزان

العالم.. والترخيص لأسبوع.. وبيروت والسيارة المفخخة.. وغيفارا تطارده الطائرات.. والحلاج المصلوب المحروق رماداً ينثر من أعلى صومعة.. فرقعات سياط.. قهقهات.. أسوار تنبت في كل مكان.. ترتفع.. تلتف بالسماء. تذبحها لتمطر الدم.. في كل مكان.. شاشة واحدة، شاسعة تجمع كل الصور.. كل الألوان.. والشيخ إمام يغني نائحاً ناعياً:

غيفارا مات غيفارا مات
غيفارا مات آخر خبر في الراديوهات
غيفارا مات

وأحبولة الموت تتدلى.. تلتف حول جيدها.

ثقبت أذنيها قهقهة حادّة عارمة.

شاهدت النساء مغرقات في الضحك لنكتة أطلقها خالد. التفتت بعدها الحاجة إليها قائلة:

-غدوة نزور صبيحة! حضّري نفسك للذهاب معنا! ولدت صبياً. العاقبة عندك.

-متى يأتي ولدك يا خالد ويملأ الدار؟

عقبت الأخت الكبرى ونظرت إلى القميص الواسع المنسدل يخفي حمل شرود الحديث. ثم نهضت وقد علا فستانها الواسع فاضحاً تقدّم الحمل.

-سأتفقّد الأولاد.. تعبت.. تصبحون على خير!.. إن شاء الله يملأ الأولاد بيتك يا خالد!

عاد طوق الحديد حول رأس شرود، يضيق ويضيق يغوص في اللحم.. والصداع حفارة بلا هوداة.. »قرصي أسبيرين آخرين، ويمضي الألم!«.

تركت شرود المجلس، والصور الملونة الفاقعة تتقافز على الشاشة. ابتعدت خارج العلّيّ. لم تشعل النور. فقد تحول النور سهاماً تثقب العينين. ملأت كوب الماء وابتلعت القرصين.

بعيداً، في الظلمة والكأس في يدها، جاءها أمير.. نظر إليها طويلاً.. وسأل: -أين النغم الجديد؟

ومضى تاركاً خلفه خيط دخان.

أسلمت شرود أجفانها للظلمة.

عـمّ تسـأل يـا أميـر؟!.. اللحـن الجديـد؟!.. أحلامنـا القديمـة؟!.. وقصيدك المدهش القادم في لحن تغنيه؟!.. عمّ تسأل؟!.. واللحن!.. ليس مجرد نغم نطرب له. إنه لغة إلهية تحكي وتروي ما لا يقال.. لغة تفهمها الأفئدة التائقة إلى الانعتاق، تكسر أغلالها، فتنهض. تتحرّك وتطير في فضاء المدينة، توقظها من نومها قبل أن يغمرها الطوفان.. واللغة الآن مغلولة، مكتومة الأنفاس!

عمّ تسأل؟!.. والنغم الآن للرعب يقطع الأوتار!.. للرصاص يدق مرعباً راشقاً كل المدن الحالمة بنغم جديد؟

وها هي أنغام الرعب القادم! تعبئ البنادق والرشاشات.. ترشق المساجد والكنائس والجامعات وتطلق شرائط الكاسات بظلمات العصر الجديد! أنغام الرعب تبحث عن منافذ المدينة، كل المنافذ، تتسرب منها حتى يكتمل السقوط، واضعاً نقطة النهاية لأسطورة الشرق!

أي نغم الآن يا أمير؟!

والـدعوة هـادرة لإسـدال النقـاب علـى الوجـوه والعقـول! الـدعوة هاجمة لاغتيال الفكر بينما النار تشعل المدن. تحرق الطفولة، وتفجر السيارات على الأرصفة، على أنغام قهقهات النساء المحجبات.

أي نغم يا أمير؟!

وخالد يصرخ بي أثناء نقاش حول كتاب تاريخ غرناطة: »الفنّ ضيّع الأندلس!« وأراه يخشى لحني يضيعني، فأخبئ لحني بين أضلعي. وأتساءل:

أيمكن أن يكون النغم ـ صوت الإله ـ سر السقوط؟!

آه يـا أميـر!.. أي نغـم تريـد؟ وكـل آلات العـزف مكسـورة! وكـل الأوتار قد قطعت!

فلتسـكت أوتـار القلـب! فـالآن أوان اغتيـال الأحـلام والأنغـام!.. لتسكت!.. ولكن!..

هل يمكن أن تسكت أوتار الروح؟!

توقفت لحظة عن الكتابة التي ساقني إليها شتات الأفكار. خطرت لي فكرة. لم لا يكون عنوان الدراسة »الأمومة القاتلة«؟ راقتني الفكرة.

عدت أرفع القلم لأبدأ الكتابة الأخيرة، مغتنمة هذا الهدوء الصباحي النادر، والصفاء الذهني الذي أفتقده هذه الأيام.

من داخل المقصورة، تفجر الصوت الضئيل بالبكاء!

لقد استيقظ زهر. لم يحن أوان الرضاعة بعد. ومع ذلك ها هو يصرخ باكياً داعياً مستضعفاً.

نهضت مسرعة إليه. تطايرت قصاصات الصحف وتبعثر بعضها على الأرض. مضيت إليه. وتركت الأفكار معلقة على مشجب التأجيل.

.. 9 فيفري 1980

الأمطار تتهاطل تكاد تتحول إلى فياضانات، ومزاريب الدار تهدر بثورة المياه.

ركض إلي محمد ابن زينة قاطعاً صحن الدار تحت المطر داعياً للنزول. فالدار تواظب على الجلسات الأسبوعية في الغرفة القبلية مع الأخت الواعظة.

الأمطار تتهاطل وفيفري يكاد ينتصف والبلاد ما زالت غائمة متجهمة تنشر أخبار الاعتقالات والمحاكمات. والصحف تواصل نشر غسيل العرب الذي لم تنفع معه آخر مستحدثات التطهير. ومع ذلك، ما زالت الإذاعة الوطنية لا تتوقف عن تلاوة برقيات التأييد والتنديد الموجهة لزعيم البلاد، ملغية أحلى الأغنيات.

الأمطار لا تكف عن الانهمار منذ يومين والبرد يتسلل إلى العظام. ومع ذلك، ها هي المدينة تفتح مقاهيها المتوالدة كالفقاقيع، للمتعبين والراغبين في بيادق اللعب وأوراق النسيان. وتكدس على الأرصفة المغطاة كتبها الصفراء يحرسها العث وجواسيس الشرق والغرب. وتتبادلها تمائم نساء الدار وجيل اليائسين والمحبطين.

الأمطار المتساقطة تنذر بالفيضان.

وخالد رغم فرحته بالوليد وحنانه الذي عاد فجأة يدثرني بعد الولادة، يذكرني بزمن مضى، أصبح يعود من العمل متعباً مغلقاً على قلق دفين. وأحياناً أخرى غاضباً لاعناً المضربين والمتمردين والخارجين على النظام والمتحزبين والمديرين.

يقول مزمجراً: »السلطة تطلب قائمة المضربين«. »المدير يريد قائمة للطرد«.. »الشركة ستفلس«.. »سنصبح جواسيس!«

الأيام الأخيرة أصبح يدخل مقطباً غاضاً النظر عما يحدث في الطابق السفلي. يدخل إلى مهد زهر يرقب نومه أو يداعب صحوته. ثم يأتي إلي مستتر الخوف باحثاً منقباً سائلاً قلقي، مفتشاً دفاتري ورسائلي.. من جاء؟.. من مضى؟.. من كتب؟.. ولم؟.. لماذا؟.. ومتى؟.. وكيف؟.. وأين؟.. ويبتدع أدوات جديدة للاستفهام.

يدخل الدار وينزع بدلة العمل والخضوع. يعلقها على مشجبي. ويرتدي حلة حراس المدينة الجدد. يجول في العلي، يحفر في الحشايا والخبايا والأفكار.

يزرع الأوتاد، علها تشد جدران القلعة الهرمة. وتقاوم التصدع المستمر المخيف.

ما زال المطر ينهمر والريح تضرب بلور النافذة. وهدير البحر يصلني من شقوق النافذة الصغيرة الوحيدة، عنيفاً صاخباً، ومع ذلك، المدينة تختنق.

.. الحراس والمخبرون يتهاطلون، من كل الجهات، من كل الثقوب، شاهرين سلاح إبادة العنفوان.. عل البحر يسكت يوماً ويستكين.

.. يطلون من كل ثقوب الدار.. يحولونني ـ أنا نفسي ـ مدينة مختنقة، رغم صخب الموج الهادر فيّ.

وها هي »هيبو« داخل أقفاص الحجر. تتخفى خلف الأسوار والأقنعة والبرمقليات. تنام على حشايا الخوف. وتلتحف أردية المجهول.

لا تلامس الموج الهادر من حولها على مدى الزمان!

لا تدرك لغة الماء!

لا تسمع النغم!

الموتى فقط، هناك، في المقابر، على الهضاب البحرية، يطلون على المدى اللامنتهي، ينعمون بحرية الروح خارج القبور.

توقفت لحظة عن الكتابة. أحاول أن ألم شتات الأفكار. وقد بدأت خطوط البحث تتضح. كتبت، وشطبت ما كتبت.. وعدت أكتب.

.. ابتعدي يا شرود عن الرومانسيات!
هي دراسة تحليلية!.. حجج وشهادات وإقناع!.. وامتحان في النهاية! لا مجرد لغة وأدب.. ولكن!..
لأسرع بالكتابة. فغداً، تنتهي عطلة الأمومة. وغداً، أخرج للمدينة وأعود للعمل.

.. 12 فيفري:
أخيراً، أرسلت الدراسة المطلوبة إلى معهد الصحافة الفرنسي. لم تبق غير ثلاثية للامتحان.
تلقيت هذا الصباح رسالة بموعد الامتحان: أول جويلية بالمركز الثقافي الفرنسي بالعاصمة. لا أدري لم تذكرت وقتها سي الطاهر. خطرت لي زيارته في باب الجزيرة بعد الامتحان. خفق فرح طارئ.. ثم داهمني انقباض.. أغرقني كل فترة المساء.

السادسة مساء.
بدأت أشعر بالتعب وانهدام الجسد. اليقظة المبكرة.. العمل اليومي في مكتب الصحيفة.. النوم المتقطع واستفاقات زهر المتكررة.. وطلبات خالد المتكاثرة.. والعائلة!..
داهمني الصداع لمرات هذه الأيام.. أهو الإرهاق؟.. أم مرض قادم ينذر أعصابي المتعبة؟

.. 27 فيفري:
.. ما الذي أريد؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟
طاقة غريبة فياضة داخلي تريد الانطلاق. لا تقدر على كبح جماحها الجدران!.. ولا البيت!.. ولا مكتب العمل!.. ولا انشغال الدروس! ولا عسس المدينة!.. ولا حتى خالد!
يحدس خالد بالخطر.. يقترب.. تتخلل أصابعه شعري المنسدل. تنزل أنامله مليئة بالرغبة، متمهلة إلى عنقي، إلى فقرات ظهري، تخدر أعصابي الشائكة المتحفزة، تحاول إخماد الأصوات الغامضة الهادرة في النفس. تستكين لحظات للمسة يده ولذكرى حب عزيز آفل.. ولكنها تعود، تعزف داخلي. تكاد تشق مني الصدر.
أمضي إلى الكتب.. أغرق في المراجع.. أتوغل في الليل، أنفث

الأوراق دخان احتراقي.. ولكن النار تبقى لاهبة، والعطش يظل يشقق الشفاه.

يدرك خالد عطشي.. تفجعه صحرائي. يطل علي من عليائه.

-ما بك؟

.. ..

-مالك شاحبة؟

.. ..

-لم أنت كئيبة؟

.. ..

-ما الذي ينقصك؟

.. ..

يغشاني الصمت فلغتي ضاعت. والنغم الذي كنت أنشد اندثر وتلاشى في فضاء القلعة. والعود الذي كنت وعدت لأوتاره لا مكان له في هذه الدار.

العود »رجس من الشيطان«.. والغناء »يلهي عن الصلاة والعبادة«.. و»الشعراء يتبعهم الغاوون«.

ويفصل كل شيء عن سياقه. وتقطع الشهادات من غابر التاريخ قاطعة ماحقة. تصفعني على ألسنة النساء. من الصباح إلى المساء.

أنثني داخل ظلمات الأرحام.

أنغلق وأغلق بابي.. أفتح الدفاتر والصحف والدروس. ولكن دقات خافتة تظل تطرق جدران القلب.. تتوالى.. وتتابع.. وتموج الأعماق.. ويتعالى الهدير.

آه منك يا شرود!.. آه من غدك!

متى يحين الخلاص؟ ؟ ؟!!!

3 مارس 1980:

.. لا بد من خلاص!

وإلا سأنتحر!.. أو أجن!.. أو أموت!

لا بد من خلاص!..

2 أفريل..

ها أنا عارية!
عارية مني!
عارية.. إلا من الجسد!
رحلت الأحلام.
سقطت غلائل الحب القزحية.
مضى الأصدقاء ونأى أمير.
وإذا أنا عارية.
عارية إلا من جدران القلعة الشاهقة المقشرة، تبرز أسنانها الحجرية المنخورة في انتظار دمي.
سنوات مضت وأنا عارية مني.
أحياناً أدخل ظلماتي. أبحث عني داخلي.
أسمع العندليب يغني

يـــــا مالكـــــاً عمـــــري
هـــــل انتهـــــى أمـــــري؟

أتوغل في سراديبي.. أين لحنك يا شرود؟
أين أحلام الصبا بالدنيا الجديدة التي ستفتحين؟.. أنت وأمير؟

يظل صدى اللحن وصدى السؤال.
أهو السقوط البطيء في سلبية لم تعرفيها من قبل كما قال أمير؟
هل ألجمك الخوف أم أرهقتك الأيام وقهرك صداعك اللعين ولم تبلغي الخامسة والعشرين؟
أم تحوّلت مدينة مقفرة خالية إلا من الأطلال تصفر فيها الريح؟

ها هم الرفاق القدامى يخرجون من الجامعات، ينشرون للشمس الأحلام. يهتفون مطالبين بالحريات والحقوق، لا مبالين بالحراس والكلاب. أناشيدهم ترتفع عالية بحقهم في اختيار المصير. وأنت ـ هنا ـ مدينة مجتثة مسوّرة، بلا أشجار ولا سماء.. ولا مصير!

من النافذة الضيقة تبدو في الأفق الشرقي البعيد، أعمدة دخان، تتصاعد وتنتشر في سماء الربيع، معلنة المواجهات في الحي الجامعي.

وأمير أصبح يطيل الغياب. يتركني للقلق عليه والخوف من اندفاعه الجموح. يغيب ويتركني لصداعي المستبد داخل قلعة حوّلت سماء أفلاطون إلى هباب.

وهوذا يسقطني الهباب!

لأرضى بالحقيقة الوحيدة الباقية: الجسد!

.. ولكن!.. أيكفي الجسد لمواجهة الأيام القادمة؟

أيكفي ليستمر بقاء الروح؟

تعبث أصابعي بقفل المذياع.

»البلاد بخير«.. »في ازدهار مستمر«.. »المواطنون يهنؤون الرئيس«.. »الزعيم يبرق للرئيس الأمريكي شاكراً«.. »المعارك مستمرة في لبنان«.. نعم! البلاد بخير!.. البلاد بألف خير!!..

أتنقل تائهة بين الإذاعات. يرتفع صوت آدمو بالغناء جارحاً شجياً، بأسى تلك الأغنية.

لتتركي يدي على خاصرتك — Mais laisse mes mains sur tes hanches

فيوماً ما، سترحلين — Un jour, c'est toi qui iras

نعم، ثأرك ستأخذين — Oui, tu auras ma revanche

ستكونين آخر أغنياتي — Tu seras ma derniere chanson

صوت آدمو الأبح الشجي يدعوني. يسافر بي، يمطر ذاك الحنين القديم، يدعوني إلى أراضيك.

Mais laisse mes mains sur tes hanches

La la la La la la.. .. ..

لتقترب! تمتد ذراعاك تحتوياني!

لتأخذني!.. تشربني.. تحرقني.. تنثرني.. وليظل صوته الشجي الحزين يلامس جراحي.. يدثرني قبل.. أن.. أموت.

.. 10 أفريل 1980:

لا بد من خلاص!

سأنسى كل أحلامي الماضية.

سـأنزل مـن سـمائي. لأكتفـي بهـذا الجسـد الـذي يحضـن ضـعفي وانكساري! يحقنني دفؤه وحراراته.
لأكتفي بمتعة اللحظات لجسد ينفتح على الدنيا!
ولأنس أحلام الروح!
لأنفض يدي من بقايا الأوهام!
لا شيء يفرض نفسه الآن، غير..
هذا الجسد..

الاثنين 2 جوان..:
أرش عطر كليوبترا على جسدي.
أفك قيد شَعري. أنثره لنجوم السماء.. وأغمض عيني.
أحاول أن أنتشي.
أحاول أن أسكر.
أراك من تحت الأجفان، فوقي.. والسقف الكنائسي العالي يتحرّك. يقترب.. ينزل في الظلمة الشفافة ببطء.
ينزل رويداً، رويداً.. والأخطبوط الساكن فيه يمد أصابعه عبر الجدران.. تحيط بي.. تخنقني..
وأنت فوقي. جبل من صخر.
يفتّح الرعب عيني.
أراك تحوّلت فجأة، صنماً عملاقاً من صخر أسود يركبني. . والأخطبوط من فوق، يحرك أصابعه الطويلة السوداء المشعرة.. تكاد تلامسني.. وعيونه جاحظة تدور بسرعة رهيبة. لاهبة ساخرة.
تختنق الصرخة في الحلق.
ومع ذلك، أناديك.. أناديك لتدفع الأخطبوط الأسود عني.. لا تسمعني.. يشتد بريق الجسد الأسود فوقي، يندبه عرق الجهاد.
أناديك بكل ما لدي من قوة.. أستغيث.. لا أسمع صوتي!.. لا اسمع غير أنين السرير وفحيح الظلمة!
أنشب أظافري فيك.. أضربك!.. أضربك!.. علك تسمعني.
يشتعل المصباح في عيني فجأة!
يجيبني الصدر العاري المشعر الواقف في وجهي، والصرخة تدوي:

-ما بك؟! ما الذي أصابك؟!.. أجننت؟ لتقتليني بكل هذا الصقيع؟!
يعيد الصدى
.. أجننت!..
.. أجننت!..
.. لتقتليني!.. لتقتليني!..
.. بكل هذا الصقيع!.. الصقيع!..
.. الصقيع!..
أرتعد ألمُّ اللحاف على جسدي المرتجف.
أعود أراك تحت الضوء الكاشف، عاري السمرة، غليظاً تنهض.
ترمي علي الغطاء.. تكسر زجاجة العطر في طريقك. تدوس على شظاياها.. تصفق الباب عليّ فاجعاً.. وتهرع إلى الحمام.
يخجل عطر كليوبترا ويختفي تحت اللحاف.
يفيق زهر ويبدأ الصراخ.. كعادته كلما يفجعه صياح.
يصخب الهزيع الأخير من الليل، وزهر لا يكف عن البكاء رغم كل المحاولات.
يصخب الهزيع الأخير، يدق في رأسي المسامير.
أخيراً يتعب بنا الليل، يترك بهرة من اليوم القادم تسحبه.
يتعب زهر، ويستسلم للنعاس.
ويختفي خالد، لا أدري أين.
ويظل رأسي يدق.. بألف صنج وصنج
يدق..
يدق..
يدق..
يكسرني..
يبعثرني..
على مدى الوعي الأخير.

الأربعاء 4 جوان:
لم افهم!..
لم كنت غاضباً ثائراً؟!..
لم أكن أعي غير أنك كنت تمسك بغلظة رسغي يدي الاثنتين،

تكاد تقطعهما.. وتصر على أسنانك.
-لن أتركك تدمرين حياتي بأحزانك التافهة! بوجهك البائس كل يوم!.. بم أسأت إليك؟.. ما الذي تطلبين أكثر؟!.. تدرسين!.. تعملين!.. لك طفل تتمناه كل امرأة!.. لا أحد يتدخل في شؤونك!.. ماذا تريدين أكثر؟!..
يواجهك صمتي. لقد ضاعت اللغة!
لم تعد جسراً للتواصل بيننا. فقد انكسر الجسر، من زمان.
-أي امرأة غريبة أنت؟!
.. لا، أنت لست امرأة! أنت لست امرأة!.. أنت جنس شاذ غريب!

أحاول التخلص من قبضتك. لا تتركني.
تدفعني بعيداً عنك. أسقط على الأرض. تركلني برجلك شاتماً. تلعن رجلك الثانية صمتي. تدفعني على الثرى.
.. لا أبكي! لا أصرخ!..
أكتم أوجاع الدنيا داخلي، وأنهض راكضة إلى الحمام.. تلحق بي.. تظل تطرق الباب بعنف شرس بقبضتيك.. لا أفتح. هنا فقط، يمكن أن أنجو من قرف الدنيا!
يفيض الدمع والضرب يشتد على الباب، يكاد يكسره.
.. أخيراً، يتوقف الطرق، تبتعد الخطوات ضاربة الدرج، وينفتح باب السقيفة وينصفق بعنف.
أفتح الباب أخيراً. أركض لأول علبة دواء تقابلني. أرمي في جوفي أقراصها.. سبعاً.. عشراً.. لا أدري وأرتمي منهارة على السرير.

الخامسة مساءً:
بدأ زهر يبكي ويشهق بالبكاء.
حين سمعته، أيقنت أني ما زلت في القلعة، وأن النهاية رفضتني ولم يحن أوان الخلاص.

السبت 7 جوان:
لم أطلقت سلوى ذاك السؤال؟
كانت الشمس تغسل الرخام. تغمر صحن الدار. وعبد الحليم يغني

من مذياع بعيد، فتتألق ألوان الجلّيز أكثر على الجدران، ويزداد بريق الرخام الثلجي. بدا الصباح الصيفي الطالع يواسي جروح الأيام الماضية، ويعتذر عن انطفاء الأقبية والمقاصير، يؤهلني لبعض النسيان، ويدعوني للعمل، حين اعترضتني سلوى أعبر إشراقة الصباح وسط الدار بعد أن أودعت زهر عند جدته.

-صباح الخير! جميل أن وجدتك!.. ألا تعملين هذا الصباح؟

أسرعت تلقي محفظتها المدرسية عند باب الغرفة القبلية وتعود تتعثر في ثوبها الرمادي الطويل وبيدها كتاب النصوص.

-أتعرفين هذا النص، من كتاب محمد العروسي المطوي »حليمة«؟ طلبت منا الأستاذة قراءة الكتاب. رأيته عندك. هل تعيرينني إياه؟

كعادتها، تأتي، تسأل كتاباً أو حديثاً قد يجمعنا أو يفرقنا، وتمضي سريعاً لينغلق عليها عالم البيت العتيق. ومع ذلك، تظل هي دون غيرها ما يربطني بعالم الدار السفلي.

ثم بغتة، تطلعت إلي بوجهها الأسمر الملفوف بوشاحها الأبيض العريض يخفي الشعر والجبين والضفائر الطويلة، والتمعت عيناها الزرقاوان بين أهدابها الكحيلة، وقالت:

-النساء كلهن يرقصن في هذا النص!

وأنت امرأة!.. لم أشاهدك مرة واحدة ترقصين!.. ألا تحبين الرقص؟

.. ..

من أين هبّ هذا السؤال؟

تأملت وجهها الصغير الملفوف في وشاحه والعينين الزرقاوين الواسعتين تتعلقان بي.. وبحر عميق غامض يدعوني ويترقبني.

من أين هبّ هذا السؤال؟

من قطرة دم أندلسية سرت في دمها؟ هي دون سواها؟ تسللت إلى المناطق الملغّمة؟ وحرّكت شجن السؤال؟

ألا تكون من أحفاد ولاّدة التاركين الديار إلى هيبو، اللاجئين لحي قريب يحمل إلى الآن اسم الوطن الضائع القديم »حي الأندلس«؟ وها هي قطرات من دم أندلسي عتيق تفلت من أنسجة التاريخ وقيوده، تسترق الحنين لعالم الديباج والحلي والحلل، تنادي فيروز و»أرجعي يا

ألف ليلة غيمة العطر«!
تدعو ولادة وابن زيدون ومجالس الأنس والطرب.
»إذ جانب العيش طلق من تآلفنا
ومربع اللهو صاف من تصافينا«
تنادى النغم الأندلسي، لتتهادى الصبايا في الحلل الطويلة الشفافة الملونة، حلقات ضوء وسحر، تتقدم وتتراجع وتحلق مع النغم الطروب.
-ألا تحبين الرقص؟
.. ..
.. يقبل أمير.. ينطلق جسد الطفل الصغير طائراً محلقاً بيننا ـ على رنات العود ـ في رشاقة آسرة، ونسيم الياسمينة تحت كرمة العنب يضمّخ مجلس الأنس والطرب، يراقص نغمات المألوف، يضرب بقدميه الأرض ويطير كراقص الفلامينكو الإسباني، تسكنه نار الحنين الحارقة.
نعود أطفالاً، وتعود عشايا الآحاد ـ قبل الجلاء ـ والنغم الفرنسي يعلو في حيّنا معلناً نشوة الحياة. نخرج من بيوتنا. نتفرج على جيراننا الفرنسيين في الفيلا الكبيرة المقابلة محتفلين بيوم راحة بهيج. تمتلئ صالتهم الرحبة بالراقصين أزواجاً أزواجاً، والموسيقى الفرنسية تعلو، تدعونا نحن الصغار العرب للوقوف أمام بيوتنا وحدائقنا نتفرج على الأزواج الطائرين، من خلال السور الواطئ والنوافذ العريضة المفتوحة، ونستمع..
تشا تشا تشا.. أوريكو تشا تشا تشا.. كازينو.. أوريكو كازينو.. نتفرج على الراقصين ونتهامس ضاحكين.
وتعود نساء الدار يقفزن مع الدف والبندير في صحن الدار أو في الغرف الطويلة نصف المعتمة، يرمين أذرعهن مع القفز يميناً ويساراً والأرداف الثقيلة صاعدة نازلة تهتز وترتج، تعلن المكبوت الذي فجره الإيقاع.
-ألا ترقصين؟
تسألني ذات الوشاح السمراء. وشجن زرقة أندلسية شاسع يلتمع في عينيها، يحدّق بي.
وتسألني شرود.
-لِمَ انعدم لديك هذا السؤال؟ رغم أحراش الأسئلة التي تسكنك؟

تراهـا مراوغـة منـك لا واعيـة لسـد ثقـوب الـوعي بقطـن التجاهـل والسكوت؟

لمَ استهواك النغم، لغة الروح، ولم يحركك الرقص، لغة الجسد؟

.. أهو خمول الجسد وجموده؟ أم تخدير ثقيل قديم لا يزول؟

أم تراه، قيد حديد تاريخي جعله لا يخرج عن الموازين الرصينة. نُسي حتى التحم باللحم وصار جزءاً من الجسد توغّل صدأه الخفي يوماً بعد يوم، منتشراً في الجسد والروح؟

فقط، كانت تطهّر الصدأ رقصات ذاك الطفل النحيف البهي أمير. وحـين هجـر الطفولـة والـرقص، ظلـت تسـتهويني تلـك الرقصـات الكلاسيكية القليلة التي يعرضها التلفزيون، يرق فيها الجسد ليصبح خيط دخان يكتب قصة الإنسان مع النغم في ظلمات الكون ويبدع لغة راقية يملؤها الحنين.

كنت متكئة على ضلفة الباب المفتوح على صحن الدار، والشمس في وجهي، وذات الوشاح الصغيرة تتمعن فيّ، وزرقة عينيها تصفو وتلين، تحيي ربوع ولادة وابن زيدون.

و.. »يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك«

فجأة، اختفت زرقة الربوع والسناء، وامتدت يد سلوى تضغط بشدّة على يدي.

-.. سيدي. سيدي!.. سيدي!

وإذا بخالد أمامنا، يخفي جسده قرص الشمس المشعشعة.

-أهلاً سيدي!

-أهلاً!.. عمّ! تتحدثان؟

أسرعت سذاجتي، لا مبالية، تجيب.

-عن الرقص.

شـاهدت سـلوى تقضـم شـفتها السـفلى. تحـدجني بنظـرة عاتبـة وتختفي. وسمعت خالد يكرر بصوته الخشن الجاف:

-الرقص؟!

انطبق خلفنا باب العلّي بعنف. وجاءني صوته مواجهاً.

-الرقص؟! ما شاء الله!.. تريدين إفساد البنت! ألم تجدي موضوعاً آخر؟!

فوجئت بصوتي المزدري يرتفع مستنكراً.

-ومتى كنت أبالي بالرقص؟.. لقد جاءت سلوى تسألني.. لم أكمل. فقد مادت الأرض وزلزلت زلزالها.

أكان خالد هو الواقف أمامي صارخاً هائجاً؟ الحنق يظلم عينيه ويوقدهما، والوجه المربع الأسمر يزداد سمرة واحتقاناً، والكلمات تتطاير متفجرة مع رذاذ البصاق؟! هذا الرجل الذي لا يصدق أن تسأل أخته عن لغة الجسد! فالجسد النسوي في الدار ملفوف إلى الكعاب، موعود بعذريته وصمته وسكونه للزوج القادم والجنة الخالدة.

كيف تقدر الدهشة أن تئد الكلمات، وتسقط كل الأسلحة؟!

فقط، أوليت ظهري وصمتي لعاصفة الغضب، وهممت بالابتعاد، وإذا يده تسقط بعنف مفاجئ، تضرب رأسي، تمسك شعري المشدود ذيل حصان. يعيدني إلى المواجهة تهكّمٌ شرير:

-ألم تجدي غير الرقص، موضوعاً للحديث؟.. تكلمي.. أم أصابك الخرس؟

-آه ه ه ه!.. اترك شعري أولاً!.. أجننت؟.. ماذا أصابك؟

-من الذي جنّ؟ تكلمي!.. تشا تشا تشا.. تويست!.. وماذا أيضاً؟

.. ..

تناثر البصاق والزبد الأبيض يرغي بين الشفتين الكبيرتين، والألم يقتلع منابت شعري المشدود.. بكلتا يدي، خلصت شعري.. دفعتني قبضة عنيفة إلى الجدار.

انتحرت الكلمات بين شفتي.. انعدم الهواء.. ثقبت عينيّ دهشة الألم.. دهشة عارمة.. حارقة.. تفجرت بدمع كاو.. اندفعت رجْلٌ من صخر تضرب.. تضرب بحذائها البراق صمتي المشحون.. اصطدم رأسي بإطار النافذة.. تفجر صوت صارخ من مغاور صمتي.

-اتركني!.. اتركني!.. وإلا ألقيت نفسي في الطريق!

التفت خلفي إلى منفذ الضوء الوحيد.. بهزء أسود دفع بي إلى الجدار.

-هيا! افعليها إذا أردت! أسرعي!
أمسكت القبضة المعدنية للنافذة.. جذبتها.. قابلني البرمقلي، بعيونه الضيقة، حاجزاً للموت، حاجزاً للحياة.

كيف تخلصت من قبضة الحديد؟
كيف قدرت على الهروب والركض على الدرج اللولبي الطويل إلى خارج القلعة؟..
نسيت الصباح.. نسيت العمل.. نسيت الرضيع الذي تركته.. وموعد الرضاعة.. جريت.. رأسي شظايا.. لملمتها بكلتا يدي.. ألقيتها في جوف حافلة ما.. على أهبة الخروج.
سريعاً ما طارت بي، بعيداً عن القلعة.. بعيداً عن هيبو المدينة التقيّة الفاجرة.. إلى مجهول أرحم.

على الطريق الترابي، خارج العمران، مشيت طويلاً. تهالكت، قرب زيتونة عجفاء متوحدة، على الثرى. وعاد طوق الحديد وقد حماه الهجير، يخز كل خلية في الرأس المشتعل.
ارتفعت يدي تمسك رأسي.. وامتدت أصابعها أمام عيني، حجاباً يقيني الشمس المشتعلة. وقتها، لمحت أغصان الزيتونة ـ مظلتي ـ متباعدة، بلا ثمار.. أوراقها ضئيلة قليلة منكمشة، مغلفة بغبار معمل الإسمنت القريب الناشر دخانه على الأراضي والأشجار.
بغتة في وهج الشمس، بين الأغصان الهزيلة وأصابعي برق خاتمي.. تلألأ البريق.. بدا في التماعه ضيقاً، مغروساً في اللحم حول بنصري.. خاتمي الذهبي الرقيق الحامل فص فيروز منمق! ذات فرح أهدانيه. انكسر كم مرّة وأصلحته وظل دوماً يزين إصبعي.
برق بحدة تحت الشمس. تشابكت أغصان الزيتونة العجفاء مع أصابعي.
رأيت أصابعي تسودّ.. تسودّ.. والخواتم حولها تشتعل!.. نفضت يدي بقوّة أطرد كذب الرؤية.. بحركة لا إرادية ارتفعت يدي الثانية أمام عيني.. نفس الخواتم تشد أصابعي الخمسة، وقد اسودت، يعشي بريقها عيني.. والألم الذابح أصابعي يؤكد صدق النظر.
وقفت فزعة.. الإبر الحامية تزداد توغلاً في الرأس.. ترنحن..

الخواتم العشر تشتعل.. تدور حول أصابعي السوداء.. الفيروز يتحول رؤوس أفاع صغيرة صفراء تتلوى الأصابع العشر.. تزحف نحوي.. تتقدم إلى وجهي.. تفتح الأفواه.. ترمي ألسنتها.. تمتصّ عيني. أخذت أصرخ.. اصرخ مع وحدتي في الخلاء.. اصرخ وأظافري تنهش لحم أصابعي.. تضرب وجهي.. تقاوم الأفاعي السامة التي تعالى فحيحها.. تقتلعها.. ترمي بها إلى بركة مياه راكدة عند منحدر من الطريق.

.. ولا أدري كيف قدرت على الركض بعيداً عن الشجرة العجفاء، ولا كيف عدت إلى المدينة.

حين سألني خالد: -أين خاتمك؟

اندهشت للسؤال.. لم يقل خواتمك.

نظرت إلى يدي الأولى، إلى الثانية. كانت أصابعي خالية.

أيمكن أن يصدّقني؟! وأي لغة يمكن أن اشرح له بها الآن حقيقة ما حدث؟!

رفعت رأسي إليه. كان مشدوداً جامداً.. وعيناه صقيع. لم أقل شيئاً.

أعاد بحدّة: -أين خاتمك؟

أجبته قبل أن أستدير مسرعة:

-سقط في دورة المياه.

يوم.. .. ..

أمضي بتؤدة خارج العلّي إلى فضاء السطح. أجر خلفي زريبة الصلاة الصغيرة ألقيها على الأرض. أتهالك عليها وأسدل الأجفان. ليحل صفاء الظلمات والسكون الرحيم! بعيداً عن أصوات المتخاصمين المتصاعدة من الزقاق، بعيداً عن كتبي ودفاتري المبعثرة على المنضدة ورزنامة الامتحان القريب.

ومع ذلك تغريني الصباحات.

تبدأ خجولة موردة. وهْم الأمل الصباحي يوحي بهدوء حييّ. أستعد للخروج. أرضع زهر وأعده ليومه. آويه عند جدته. وأمضي للعمل. في المرآة الصباحية يقابلني وجهي، أبيض، ناعماً، دقيق الملامح، مبحر العينين اللوزيتين في عمق عسلي لذيذ. شرخ الشباب!

الخامسة والعشرين!
يحوم شبه اطمئنان على الرموش وأخرج للدنيا.
بعض ساعة فقط، ويدب في مفاصلي التعب، يتوغل في العضلات والعظام. ترتخي الأجفان ويعود الشحوب. لا ينتصف النهار حتى تفقد الرجلان القدرة على الوقوف. يهبط إعياء مريع. أمضي إلى المغسلة. في المرآة، يفزعني وجه شديد الشحوب وقد غرقت عيناه في دائرتين رهيبتين من الزرقة.

أمضي عائدة إلى الأزقة. تثقب عيني الشمي، ووخز الإبر اللعين، يدق ناظري وأم رأسي. تنغرز الإبر أكثر، شريرة في الدماغ، أطياف البشر في الطريق تتصادم.. تطرق عصبَي عيني. أشيح بوجهي. تؤلمني رقبتي. يصبح رأسي شديد الثقل. أعود رغماً عني. أواجه الطريق، أستجدي من الصيدلية أقراصاً جديدة للصداع.
شديدة الوهن أتسلق الدرج اللولبي. يأتيني صوت بكاء. تدعوني الحاجة:
-زهر جائع! تعالي أرضعيه!
يأتي خالد.
-ألم تعدي بعد الغداء؟
تتهاوى رجلاي. أستند إلى ظهر كرسي المطبخ.. ما هو أوان السقوط! ما هو أوان السقوط!.. تمالكي يا شرود!
.. .. وتأتي القيلولة.
تراني غفوت ساعة أم خيل لي الغياب؟
غياب لا يفيق إلا على ضياع الدنيا وسقوط الأحلام في قفص صداع يحتل الرأس.. صداع يغرق الروح والجسد في جحيم لم يعرفه من دخلوا الجحيم. وها أنا ذي على بساطي، ممتدة، في سطح الدار! وجهي إلى السماء، أسدل الستار على ظلمتي، أترجى صفاء قديماً قد يعود.
-مالك ترقدين هنا؟
صاح خالد.
بصعوبة فتحت عيني.
-ألم يخف الصداع؟

-.. .. ..
تطرقني الكلمات. تطرقني الحروف.. أعود أغمض عيني.
أعود أسمع صوتها.. أنا لما حبيتك خطر على بالي
اللي جرى لي واللي راح يجرى لي
يطرقني باب السقيفة.. تطرقني أصوات النساء المتصاعدة.. يتعالى طرق الحديد الحامي على رأسي.. أستنجد بخالد الجالس على الدكة قربي، عيناي نصف مفتوحتين.
-أرجوك.. كلمهم.. لا أستطيع التحمل.. لمَ يصيحون؟.. ليخفتوا الكلام!.. أرجوك!.. قل إني مريضة!.. رأسي!.. سينفجر!..
-هه! أيعقل هذا؟ إنهم في بيتهم! لا أقدر على منعهم من الكلام!.. الأفضل أن تدخلي إلى فراشك وتغلقي بابك.

أشد ناظري. تلتهب الظلمة في عيني.. والضحكات والصخب والهرج ولغو النساء من وسط الدار، يتصاعد.. يقرع أذني.. يطرق رأسي المشظى.

قربي أسمع خشخشة الجريدة في يد خالد الجالس على الدكة.. خشخشة تخفت وتعود. محشرجة عدوانية، تخدش غلاف الدماغ.. تخدش بأظافر متوحشة جراحاً تلتهب.
ترتفع أصابعي إلى أذني.. تدعو الصمم.. تأتي الجريدة.. تتدحرج أوراقها الكبيرة على وجهي.. تخدش خشخشتها أصابعي.. وجهي.. عيني..
أقوم..
آخذ صمتي معي.
ألمّ شظاياي.
أمضي بها نحو العلّي.
أتركها تتهالك على الفراش.
أرى الجدران تتهالك معي والصخور تتهاوى على رأسي، والقهقهات الحادة العالية وخشخشة الصحف، تشيّع جثماني الوحيد المكفّن بأوراق بيضاء لم تكتب بعد.

.. 10 جوان:

غرفة الفحص والطبيب الإيطالي الأسمر منحن علي. خلفه كان الباب مغلقاً.

لا أدري كيف استسلمت لسريره المعدني البارد. ولا كيف قطعت المسافة بين الدروب المحفرة القديمة وعيادته في الحي الأوروبي. كان الطوق الحديدي الحامي الذي يشد رأسي يشتعل والطبيب أمامي. المطرقة البلاستيكية في يده.. ترتفع. تضرب ركبتي ضربة خفيفة خاطفة. ترتفع رجلي عالياً في وجهه.

ضربة أخرى، تنتفض رجلي الثانية للسقف، وينتفض كامل الجسد، صاح الطبيب بلهجته المشوبة بإيطالية طفولة بعيدة.

-أوه! مدام!.. آش بيك مدام؟! سافابا! لازم ترتاح!.. تحضر لدبريسيون!.. قبل الدواء ترتاح!..

وأمسك بيدي مساعداً على النزول. ربت على ظهري واستدار إلى مكتبه.

بدا لي صوت خالد آتياً من قاع المكتب، خافتاً شاكياً. ولمحته من خلف، من خلال فتحة الباب متكئاً على المكتب، يسرّ للطبيب.

عمْر الطبيب الوصفة ثم واجهني.

-إذا ما ارتحت تمشي لسبيسيا ليست! طبيب أعصاب، في تونس!

-.. طبيب.. أعـ..صا..ب؟!

وسمعت خالد يسأل.

-لماذا؟.. طبيب أعصاب؟!

تحولت الحروف مطارق تطرق الرأس، تكاد تشظي الدماغ من جديد.

وقتها شاهدت ابن عمي عماد الفتى الجامعي الذي اختفى بعد إحدى المظاهرات ثم عاد بعد شهور ذاهلاً، ساهماً، مشوه الملامح. طردت عنفوانه المدينة.. طرده المستشفى. وعادت المدينة تطرده بأسلوبها الجديد.

جاءني عماد بمنامة المستشفى الخضراء البالية، تماماً كما رايته ذات زيارة. وقف بيننا. مد يده الثقيلة، ودعاني بصمت. أخذ عماد يدي. مشى بي تحت معلقة البوابة الكبيرة المفتوحة لنا. »مستشفى

الأعصاب«.. »مستشفى الرازي«.
مشينا في الممرات الظليلة الصامتة. دخلنا العنابر. وقفنا أمام الشبابيك والقضبان.
تابعتنا العيون المتورمة.. الجفون المرتخية.. النظرات الكسلى الذابلة.. مفعول الأدوية المنومة والمخدرة في الأجسام.
دعاني المتنبي في إحدى الردهات بصوت جهوري ممطط بطيء:
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
كان في منامة قديمة خضراء ورجلين حافيتين على البلاط.
جاءني منور صمادح..
ونزار.
ودرويش..
حام المنفى والجنون..
وطارت أشعار تشق القضبان إلى الشجر الهرم العتيق
.. أشعر بالخوف من الأحزان فآويني! والصدى يعيد عالياً.. عالياً..
.. أشعر بالخوف..
الخوف..
الخوف..
فآويني!..
آويني!..
آويني!..
ونوافذ تطلق قهقهات.. و»بلادي بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي!« يشدو بها صوت بعيد،
والمنامات الخضر تجرها في المعابر الخطوات الثقيلة، وغناء شجي بين معابر الشجر،
والرجاء المتكرر لكل زائر واليد مفتوحة الكف:
-أعطني مائة مليم!
-.. مائة مليم!
-.. مائة مليم!

وامرأة أربعينية معلقة خلف قضبان نافذتها العالي تشير إلي بخوت. تضحك لي.
-تعالي تعالي..
وأنا أقترب مشفقة، تهمس لي:
-أعطيني مائة مليم!.. مائة مليم!
وصوت نحيب بعيد.
ووجدتني أردد: -مائة مليم! مائة مليم!.. مائة مليم!
ثم اختفى عماد وتركني وحيدة مع المنامات الخضراء.
انتفضت صائحة:
لا!..
لا!..
لا!..
لا!..
أمسك الطبيب كتفي بيديه سائلاً: -آش بيك مادام؟
-لا.. لا أريد سبيسيا ليست! لا أريد طبيب أعصاب! أريد فقط مسكّناً قوياً للألم!.. فقط مسكّناً يطفئ هذا الحريق!
-سافا سافا مدام! Ca va إن شاء الله لا بأس! ولكن الراحة لازمة! قبل الدواء!
وظل مهلة يربت على كتفي. وظل شبح عماد الصامت في مكتب الطبيب يختفي في مكان ما.. يرقبني.
قرب الباب انحنى علي الطبيب الإيطالي الأصل مودعاً. شدَ يدي في يديه العريضتين مشجعاً، مؤكداً:
-أورفوار مدام! لازم ترتاح!
وخرجت، يتقدمني خالد إلى الباب الخارجي.

الآن أجدني مرغمة على محاولة الاسترخاء والبقاء في البيت حتى يمكنني الوقوف من جديد واجتياز امتحاني القادم.
-اكتبي مدام! ارسمي أو غني! أو.. استمعي للموسيقى! إذا كان هذا يريحك.
قبس أضاء فجأة العتمة وأنا أذكر نصيحة الطبيب.
اكتبي! ارسمي! غني!

غني يا شرود!.. غني!
وأسلمي لغيمة النسيان دنياك! وخذي دواءك!
غني! فقد يعود النغم!
وتعود ترحل بك الألحان!

.. 12 جوان:

نهضت مبكرة رغم عطلتي المرضية.

نزعت ورقة اليومية.. 12 جوان. أسبوعان فقط للامتحان.

في المطبخ أخذت علبة دوائي السحري، lamalin. تناولت القرص الكبير الأبيض. دفعته بجرعة ماء.

الحرارة ثقيلة هذا الصباح.

تراني قادرة على مراجعة كل الدروس والأبحاث؟

تراني قادرة؟؟..

سمعت بكاء زهر في مهده. تركت الحليب في وعائه على النار وصعدت الدرج، مسرعة إليه.

الجمعة 13 جوان:

جاء أمير يفيض حماساً.

خفيفاً. سريعاً. دخل العلّيّ. أقبل في قميصه الكناري، وخطا مسرعاً إلى المكتبة.

-أين الكتاب؟

ومضى كما جاء، طائراً، كتاب مذكرات تشي غيفارا في يده وقبلة خاطفة على خدي، فرفيقه ينتظر عند الباب.

لم يمهلني لأسأل.. ولكني حدست أنهم يعدون لمظاهرة للمطالبة بالإفراج عن زملائهم، مساجين جانفي الأسود، والمطالبة بحقهم في الامتحان.

مضى أمير وظل لون القميص في عيني، أقباس شمس دخلت العلّيّ المعتم فجأة واختفت. مضى بفرحي، وتركني لقلق ثقيل مشحون بالخوف.

في استراحة القيلولة، وبعد قرص دوائي السحري المعمَّد بالمورفين دفنت رأسي في الوسادة.

عاد أمير. أغلق باب غرفتنا. دنا مني. بدا صغيراً برّاق العينين.

لم يتجاوز سنواته الست. مسحت على رأسه وتبسمت له.

بهدوء، أخذ آلته الإيقاعية، وارتفعت أصابعه الصغيرة، رقيقة، رشيقة، تنقر الرق، ليرتفع الإيقاع، خجولاً في البداية، فنشوان طرباً، تتبعه أصواتٌ شادية.

أليـــــف يـــــا ســــــلطاني والهجـــــــــران كـــــــــواني
آليـــــــف

يهمس صوتي في البداية، ثم يرتفع معهم، رقيقاً، بالغناء.

بـــــــاء بليـــــــت بنظـــــــرة تــــاء تــــه يــــا نجـــم الزهـــرا
جـــيم جـــار عنـــي ســـلطاني والهجـــــــــران كـــــــــواني
آليـــــــف

يبدون في أرجاء الغرفة منتشرين. فريدة والعود في حضنها والأصابع تداعب الأوتار. صالح وعماد وسعيد.. أبناء عمنا.. ونبيهة الحلوة السمراء. ترق وتنتشي الملامح. تتمايل وتحن الأجساد.

أليـــــف يـــــا ســــــلطاني والهجـــــــــران كـــــــــواني
آليـــــــف

في لحظة، يترك أمير الرق لأخي أحمد. ينتصب بيننا. يرفع يداً إلى السماء. يدور وسط الحلقة على أطراف الأصابع، ماسكاً خصره، راقصاً ببراعة مع النغم، حائماً في الفضاء، كطائر سحري مضيء.

يهزنا الطرب. ترتفع الأكف مصفقة مع الإيقاع.

ألمح غصينات الياسمينة المورقة على النافذة، تهتز للأنغام، تفتح نجمات زهرها للغناء. تشرق وتتلألأ خضرتها اليانعة.

أرفع يدي للشجرة المعرشة على النافذة والطرب، نسغ الحياة يسري في أصابعي، ألامس الخضرة المزهرة، أدعو النجمات وإذا.. الوريقات والزهرات تسودّ.. تسقط فجأة.. تتحول هباباً بين أصابعي.. والغصينات المورقة تمسي جرداء مسودة محفورة في الجدار. والجدار يعلو.. يعلو.. يعلو.. ملتهماً الضوء. مورماً برطوبة قاتمة.

وإذا أخطبوط أسود على جدار العلّيّ يمسك أصابعي الممتدة للنغم ولزهر الياسمين.

γ γ γ

انقلبت على الجانب الآخر من الفراش. رفعت الغطاء على وجهي، يخفي أخطبوط الجدران.

γ γ γ

كانت تمطر. والكرنيش وقت المطر خالي الضفاف. والبحر البادي من نافذة بيتنا، خلف شجرة التوت، غامض الألوان، يتقلب في إغراء. ويأتي طقسي! إغراء المطر والنسمة الباردة والشجر المغسول بخضرته البراقة يتقاطر منها الماء. أفتح نافذتي للهواء المنعش. تفوح رائحة الأرض بعد المطر، وتتلألأ الياسمينة المعرّشة على النافذة، تتألق الخضرة المشبكة وزهر الياسمين المبلل.

طقس يشرّع نوافذي. والنغم داخلي ينفتح دوائر من الضوء تشع وترتفع، راقصة قزحية. ويعلو صوتي بالغناء. أغني لحني، على وقع المطر المنسكب. أفتح الباب، وأخرج للمطر.

تناديني أمي: -أيتها الشقية! ادخلي! ستمرضين!

أسرع مبتعدة مستخفة مازحة.

-ألا ترين ما أجمل الطقس؟

تعيد النداء وتضيف: -.. مجنونة!

أخطف منها شالاً. أرميه على كتفيّ، وأراضيها وقد خطرت لي فكرة.

-سأجمع لك الحلازين! لا بد أنها خرجت للمطر!.. ألا تحبين أن أساعدك؟

تدفع في يدي، نصف غاضبة، وعاء، وأمضي إلى الشجر، أجول في البستان، وخيوط المطر الرقيقة تمسح وجهي وشعري، ناعمة، مع بدايات الخريف، وروائح النارنج والبرتقال تفوح. أذكر وعدي لها، فأنادي الحلازين بتلك الأغنية التي يخرج بها للصغار.

حلّ عيونك يا بو زيد اخرج وإلا يجيك الصيد!

أشاهد حلزوناً عند عنق شجرة التوت يخرج رأسه، يفتح قرنيه. ويقترب مطيعاً.

-»حل عيونك يا بو زيد!«

ألتفت. أجد أخي الصغير خلفي قد تسلل من الدار يدعو مثلي الحلازين حاملاً سطله البحري الصغير الملون، يتابع خطاي.

يظل المطر، رقيقاً شفيفاً، شادياً. والحلازين تفتح قرونها للمطر، فنلتقطها، ونحن نغني لها، معاً.

حلّ عيونك يا بو زيد أخرج وإلا يجيك الصيد!

.. حتى يمتلئ الوعاء والسطل البحري الملون لأخي أمير، ليكون الغذاء لذيذاً حاراً بحلازين البستان.

فجأة، سقط الوعاء من يدي. في سقوطه، ارتطم برأسي. شجه نصفين.. خرجت منه ديدان.. وأفاع.. وأخطبوط أسود.. مدّ أذرعه ولفها حوالي!.. وعلا صراخ.

فتحت عيني فزعة.. غاب المطر والشجر والحلازين، وغاب أمير.

كان زهر يبكي، وخالد يدخل المقصورة ضاجاً داعياً:

-ألم تسمعي بما حدث؟

سمعت طوق الحديد ينغلق فجأة على رأسي ضاغطاً حامياً. أمسكت رأسي بكلتا يدي.

-المدينة خائضة! لقد خرج الطلبة في مظاهرات. رجال البوليس أطلقوا الرصاص، والقنابل المسيلة للدموع، واعتقلوا المئات.. هناك من قتل!

في ذهولي تذكرت أمير هذا الصباح، أقباس شمس تأتي سريعاً وتغيب مع القُبلة الخاطفة. أسرعت أنهض من الفراش، أرفع الستار عن النافذة.. من ثقوب البرمقلي كان الدخان يملأ الأفق الشرقي. وانتبهت إلى أن زهر ما زال يبكي، ويشهق بالبكاء.

هامش
3

تناقصت أوراق شرود.
بدأت تقترب من النهاية.
تركتها في فوضاها. تهرب مرّة إلى الجسد وأخرى توغل في زمن مضى، تدعو النغم تنجو به الروح.
تعود للأرض والشجر، وللأطفال القدامى.
وتنادي.. جبل التوباد حياك الحياه.
وسقى الله صبانا ورعى
ولكن إلى متى الهروب.؟!
آن الأوان!
تساقطت أوراق الذكرى. فإلى متى الهروب من جريمتك؟
جريمة تلقفتها الصحف، وتصدرت الصفحات الأولى من جرائد الفضائح. فإلى متى تلتحفين رداء البراءة الأولى؟!
إلى متى تتعمدين بدم الضحية؟.
.. ..
ضحيّة من؟!
ضحيّة الزمن الأعرج الأخير؟!
أم ضحية الخوف الذي كبل المدينة وقادك وهماً إلى الاختيار؟ تماماً كما نختار حكامنا وملوكنا!
أم ضحية الصراع الأخير ليمين ويسار يقتتلان في دمك؟!
يقتتلان في ساحة الحرية المزيفة، بينما الأصابع المقفّزة، في قصورها العالية البعيدة، تحرك الخيوط!!
وترسمين قولة ساذجة في دفترك، أعجبتك ذات زمن. »العجب هو براءتنا الأولى«.
أما زلت يا شرود، لم تتجاوزي درجة العجب؟!

بينما الخيوط، عارية زئبقية تتسارع متوترة ذابحة، معلنة نهاية إحدى جولات الدمى على مسرح المدينة، وأنت، شاردة، تائهة بين الخيوط؟!!

الكلمات الأخيرة

مساء الجمعة 13 جوان:

طرق الباب بقوّة، طرقات متواصلة.

سمعت صوت عمتي عائشة ينادي. ركضت أنزل الدرج. وجدتها على عتبة الباب. لحافها الأبيض ساقط على الكتفين. وجهها المغضن شديد الشحوب، يبلله العرق. توقفت في السقيفة مجهدة.

-هل أتاك أمير؟.. لم يعد من الصباح. قال لي الجيران: الجامعة خائضة.. ضربوا الطلبة في المظاهرة.. قبضوا على جماعة منهم.. قلبي يقول لي إنه معهم!.. نادي خالد!..

يا سي خالد!..

يا ستار استر!..

وامتلأت عيناها الكليلتان بالدمع.

الواحدة ليلاً..:

اختفى أمير.

أنكر الجميع رؤيته.. مراكز الشرطة والمستشفيات والأقارب.. بعض رفاقه فقط أكدوا أنه كان معهم في المظاهرة. ثمّ لما ارتفع الدخان والعصي، وانتشر رجال البوب، لم يشاهدوه. عمتي عائشة رفضت البقاء معي.

»قد يعود!..« وأضافت معاتبة: »من له غيري لإحضار عشائه؟!« ستبقى في انتظاره. ولكنها خبأت عندي كل أوراقه وكتبه خشية مجيئهم للتفتيش. قبل أن أصعد الدرج، في ضوء السقيفة الخافت فتحت الأوراق وبدأت أقرأ خط أمير.

سبحانك يا ربي!

حتى الأطيار لها وطن

وأنا..
في هذا الوطن الممتد
من البحر إلى البحر
سجون متلاصقة
سجّان يمسك سجّان.

وفي الزاوية، كتب أمير: شعر مظفر النواب

أسرعت أغلق الأوراق، وصرير أبواب السجون يتابعني، يصعد معي، يطوقني، وضوء السقيفة ينأى ويغيب.

ظلمة تنادي ظلمة
وسجّان يمسك سجّان

الاثنين 23 جوان:

مضت عشرة أيام كاملة! ولم يعد أمير.

كلّ صباح نذهب للسؤال، وكل مساء نعود بخيباتنا.

لم ينفع كل الأصدقاء، والمعارف. لقد أصبح أمير عصيّاً على السؤال. الجامعة أغلقت الأبواب، وتمّ تأجيل الامتحانات لموعد غير محدد. هذا إن لم يعلن عن سنة جامعية بيضاء ـ كما قيل ـ.

خالد نصحني بالهدوء، والانتظار، والانتباه لصحّتي والاهتمام بزهر الذي يكاد يضيع في غمرة الأحداث والمشاغل، ونسي أن يذكّرني بامتحاني القريب في المركز الثقافي بالعاصمة.

والدار عادت إلى عاداتها وطقوسها.

والأنغام، خجلة، عادت لتختفي في مغاور الظلمات بين الضلوع.

وطوق الحديد، في رأسي، من حين لآخر، يغرز إبره في الدماغ، رغم الدواء، فأمضي مرغمة إلى السرير.

ومع ذلك، في وحدتي، أفتح أوراق أمير، أدعوه ينجدني، فيأتي، في بعده، يحرّضني، وأنا أقرأ في دفتره:

»قلبي قمر أخضر قلبي بستان
فيه، فيه العوسج فيه الريحان
شفتاي سماء تمطر
ناراً حيناً حباً أحياناً

كان مارسيل يشدو بصوته النقي الأليف، ونحن معه. صوتاً واحداً كنا، يشق السماوات السبع، والإيقاع يشتد، والعود بين يديه، مضيئة أوتاره. تتراقص رناته، يحلق صداها أطياراً شفافة مغنية طروباً.

انهـــض للثـــورة والثـــار
انهــض كهبــوب الإعصـــار
وارجـــم أعـــداءك بالنـــار

وقفنا جميعاً منشدين. كانت الأرض تميد بنا والسماء تردد معنا النشيد.

فجأة، وقفوا بيننا.. عرفناهم، عسس المدينة، بقاماتهم العالية وملابسهم الكحلية الموحدة.. اشتعلت إشارات حمراء من أعلى الصفوف إلى أسفل المسرح، منذرة من هبوب الإعصار. ولكننا كما قد ارتفعنا إلى سماوات الطرب. لم نعد نبالي بإشارات الضوء الأحمر الخائفة من النغم.

لم نترك لهم المجال لإخماد أصواتنا. فلم نكن نحمل سلاحاً ولا قنابل. ظلت جموعنا تردد معه الأناشيد حتى بعد منتصف الليل. وأشعار درويش تشعلنا فنضيء المسرح ونرقّص الحجارة والجدران.

مـن غـزة مـن قـدس العـرب
مـــن اســـر النقمـــة والتعـــب
اخـــرج كـــالريح ولا تهـــب
يـــا جبـــل النخـــوة والغضـــب
وتـــدفق نهـــراً مـــن لهـــب!«

آه يا أمير!

حتى بعيداً!.. ها أنت تحرضني وتشجيني!.. حتى بعيداً!.. رغم الحزن، والخشية. والمخاوف.. تحرضني.. وأعود أنهض!

أعـود أمسـك بأظـافري الحيـاة!
أغرس أسناني في التفاحة المرة.
وأفـتح الأوراق رغـم المـرارة.
.. ..

مـــن هنـــا يبـــدأ الطريـــق!
.. مـــن هنـــا، يبـــدأ الطريـــق!

تتصلب أصابعي على دفاتري. يعلو صوتي بالقراءة يرسخ النص في الذاكرة.
يوجعني صوتي. يغرس مسمارين ثاقبين في ناظري!
.. أصمت. وأقوم.. ألم يكفِ قرص المورفين؟
أفتح علبة الدواء، وأضيف قرصاً آخر.

يوم .. .. جوان:
وحيدة الآن!
الواحدة بعد منتصف الليل.. أرقة مرهقة أكثر من الاحتمال.. أكثر من اللزوم.. أيام ـ منذ غياب أمير ـ لا أنام.
تناسيت اليوم عملي.. لازمت الفراش.. حاولت أن أنام دون جدوى..
رائحة الرطوبة العطنة تتسلل إلى كل مسامي.. تعفنني. والمخاوف والأفكار، والأصوات، تغلق طوق الحديد الصدئ الحامي على رأسي.. تبيح دمي.
أتجمد.. أسلّم القيود جسدي الواهن.. حتى لا يستفحل الطوق.. ويقتلني. رغم ذلك، في سكوني، تنبض صارخة بعض العروق.. أراها تنتفض تحت الجلد!.. تضربني..! أنتفض لحظات.. ثم أعود لموتي على السرير.. وتظل تحرسني أوجاعي، في انتظار الجنون الأخير.

أدعو خالد في صمتي.
ولكن خالد بدأ يمل.. أصبح يكثر من الخروج، وحين يعود، تسبقه تقطيبة الجبين.
ومع ذلك أدعوك!..
آه! آه يا خالد!
لو تدري أني مشنوقة من الأشفار!
أني أموت اختناقاً بين أصابع العنكبوت!
لو تدري دائي الذي لا ترى منه غير الصفرة والشحوب!

.. لو تدري!
فقط!.. لو تمتد يدك! حنوناَ، عطوفاً، بزلال النبع القديم!
ربما، وقتها، أعود قادرة، فقط، على أن أنام!
.. أنام
أنام..

6

دروب الفرار

درب الفرار 1:

الصباح.

هربت من المكتب. من الضوء. من خشخشة الأوراق. من تكتكات آلة الطباعة.. عادت المطارق والمسامير، وغار الصدع، رغم قرص الصباح، رغم قرصي الإضافي.. المورفين في الدواء ما عاد قادراً على وجعي.

أمسكت رأسي الذي سيطير.. لم يشعر أحد.. لم يلتفت أحد.. أمسكت بركاني الحارق، وهربت من مكتبي.

الآن على الفراش أحاول النوم. عيناي مغمضتان مفتوحتان.. أوجاع رأسي يجب أن تصمت.. أن تموت.. لن أستطيع العمل! لن أستطيع الحياة!.. إذا لم تدفن!

.. لِمَ أفكر الآن؟! لِمَ أفكر وأنا أريد النوم؟.. لماذا؟

سحقاً للفكر!.. سحقاً له!.. لا! لا!.. هدوء يا شرود!.. هدوء! ليتني »أخو الجهالة في الشقاوة ينعم«!.. دون عقل!.. يا للنعيم!.. يا للصفاء والبياض الناصع البهي! في الخواء الشاسع.. في الجنون الرحيم.. في شحوب وبرود النهاية.. النعيم!.. النعيم!.. النعيم!

أحسّني أرتعد.. أهذي.. أضيع.. وحيدة في صحراء الحريق.. لا خالد معي!.. لا أمير!.. ولا الأحلام!.. لا!.. إلا الأحلام!.. إلا الأحلام!.. سأظل أحلم! رغم الوجع.. رغم القيود.. سأظلّ أحلم!.. سأجتاز الامتحان القريب.. سأنجح! وسيعود أمير.

وسيعلو النغم القديم!

فتمالكي!.. تمالكي قليلاً يا شرود!

درب الفرار 2:

بدأت تصرخ! تهدد بالخسران والويل والثبور.

وجهكَ العالي يزداد سمرة واحتقاناً وغضباً.. وأنا أتابعكَ بوهني الرهيب. يداكَ ترتفعان وتنخفضان بعصبية.. تقتربان من وجهي، طيوراً سوداء تضرب أجنحتها الغرابية عيني.

وأندهش وأنا أتابع المشهد.

لمَ تغضب طيور السماء وتضربني؟!

لمَ يصرخ خالد ويزمجر ويثور؟!

.. لا قدرة على السؤال! لا قدرة على الفهم!.. مرهقة.. مرهقة.. لحد الرعب!.. لحد الغياب!

.. ..

تراني، أنا التي هربت إلى المقصورة، وأغلقت الباب؟..

أخذ يضرب الباب بكلتا يديه.. ضرباً عدائياً حانقاً.. يدعوني صائحاً.. المغلاق الثقيل كان ساقطاً على مقبضه.. لم ينفتح.

مرمية على السرير كنت، أسمع صوته الصارخ بي، يغرقه عويل يهزني.. عويل ثكلى يشقها الألم.. لا يتوقف.. فجأة رأيتهم، أشباحاً ضبابيّة، وأنا في بئر سحيقة، وضوء ناء فوقي يذهب ويجيء.. من أين جاؤوا؟.. كيف دخلوا؟..

النشيج يهز جسدي، وأصوات فوقي تقترب وتنأى.. وتعود..

-لا حول ولا قوّة إلا بالله!

-ما الذي جرى؟.. لم كل هذا؟

-.. حتى لو ضُربَت!!.. أتفعل هذا بنفسها؟

-والصغير!.. يكاد يموت في مهده!.. خذيه يا سارة! خذيه!

الأشباح أمامي تظهر وتختفي.. وماء الزهر يرش وجهي يمطرني.. كنت في بئر سحيقة ضيقة.. والنشيج يعصف بي.. لا يتوقف.. لم أكن أرى من خلال أجفاني المتورمة غير أشباح تطوح بي.

ثم، انطفأ الضوء البعيد فوقي.. وسمعت أقدامهم تسير نحو الباب.. أخذوا زهر معهم.. ذهبوا كلهم، معاً. وبقيت وحدي.

درب الفرار 3:

في قلب الليل، وجدتني هاربة بين معابر وممرات ضيقة.. أركض بكل قواي.. أبحث عن مهرب.. لا أجد غير شرفة في الطابق الأخير.. شرفة بيت أعرفه..

التفت ورائي. هو آت!.. أصرخ مستنجدة.. لا أسمع لي صوتاً!.. ألمحه يقترب.. أين الهرب؟.. من الطابق الأخير!.. يبدو تحتي الطريق.. أهم بالارتماء من الشرفة.. يمسكني الدرابزين الحديدي. أصرخ.. أصرخ ولا أسمع غير صمت مخيف.

كيف وجدتني ـفجأةـ في الشارع القفر؟.. أركض مهرة مفجوعة وحيدة.. أسمع أقداماً تطاردني.. أسرع أكثر.. المسافة بيننا تتقلص.. تكاد تنعدم.. أنكمش خائفة، مختفية خلف مقعد محطة حجري.. أغوص في الظلام.. تقصف اللحظة.. تسقط علي قبضتان ساحقتان تمسكان بي.. تجراني للمسلخ البلدي.

في غمرة الدوار والخوف والظلمة، تومض بوابة يطل منها وجه أمير ـفجأةـ ويغيب.

في المسلخ، تصعد الأصابع الباردة إلى عنقي.. تلتف حول جيدي.. ترتفع سكين تبرق.. أفتح عيني قبل الموت.. وإذا وجه خالد في وجهي.. ويده، شبقة، في عنقي.

درب الفرار 4:

البارحة دعوا لي الطبيب. طلب لي أقراصاً منومة. هويت بعدها في هاوية السبات.

اليوم عيد!

ذبحت الخرفان في صحن الدار.. لوث الدم الجدران.. تصاعد الدخان من الكوانين.

.. الساعة الثانية.

بدأ الدخان يصّاعد مني! تحولت جمراً ودخاناً.. وبدأت أحترق.. النار تتعالى من رأس الخروف المحترق لتأكل رأسي وتقيم لدماغي محرقة.

هربت من النار. صعدت إلى العلّيّ.. أين مخدّري؟.. لأضع

القرص الكبير في فمي ينقذني!.. أضيف قرصاً آخر في انتظار منوم المساء. أغرس رأسي في السرير.. أركض إلى الوراء.. إلى بيت الصبا.. أدعو الوجوه الحبيبة.. أدعو الأحلام.. أدعو الآيات الرحيمة.. لا يأتي أحد!.. لا الأحلام!.. ولا الآيات التي احتكرها لصوص الدين، وتركوا رأسي مفرغاً إلا من الجحيم!

لا يفتح أحد!.. كلهم أغلقوا الأبواب!

أخي اختفى!.. عمّتي عائشة رفضت المجيء!.. رفضت ذبح الخروف المقدس حتى يعود أمير..

وخالد في الأسفل، لم ينتبه لحريقي. ما زال محتفلاً بالعيد، يحرق رؤوس الخرفان.

رائحة الشواء تملأ المدينة.

والنار تأكلني.. ولحمي يسّاقط مفحماً.. مخيفاً.. دائم التساقط.. إلا رأسي!.. دائم الاحتراق!.. دائم الاحتراق!

.. فأين المفر؟؟؟

درب الفرار 5:

على حافة الجنون!

عضلاتي أصبحت تتوتر.. تنقبض وتيبس.. تصبح صخراً ملغماً.. ثم تنبض بعنف مفاجئ لا إرادي.

أنتفض أحياناً.. أو أصرخ.. أو أرتعد.

ها هي الدائرة الحجرية تضيق!.. تضيق!

والأيادي الأخطبوطية المتدلية من السقف الكنائسي!.. إلى فراشي تعود.. تدب دبيباً مخيفاً باتجاهي.. تخرج منها مئات العيون، تثقب وجهي.. يديّ.. تثقب أغطيتي.. ثيابي الداخلية.. تبحث في عظامي.. هل من سر تخفيه؟.. تبحث في دمي عن جرثومة الحياة! جرثومة الرعشة الخارقة المباركة! تلك التي سكنت أمير فأخذوه.. ولكن هل بقي لي شيء من أمير؟

ومع ذلك، ها هم يترصدون خطاي.. يجلسون ويقفون معي.. يبحثون في أوراقي.. يفتشون عن أوراق أمير.

العيون في كل الثقوب.. وخالد معهم يحفر ثقوباً جديدة، ويبتدع أدوات أخرى للتحقيق.

يشقون جمجمتي، وفي دماغي يغرسون الإبر.. الإبر.. الإبر.. فما الذي أنتظر.؟ والحصار يضيق ويضيق يكاد يفجرني داخله؟ ما الذي أنتظر؟ ؟ ؟

ليمتْ كل شيء! الرعشة الخارقة! أحلام الحرية والفن والحياة!

ليمتْ كل شيء! ولتبق البركة الراكدة الآسنة يأكلها الدود! ولتنزل اللعنة تأخذ كل الدنيا، ما دامت الروح تذبح بسكاكين الجاهلية الأولى! ولكني.. هل تصمت الروح؟ هل تستكين؟

لا.. لن تستكين سوى السكين وستظل الروح تنتفض بعذابها، ترش الدم الدافق في وجوه ذابحيها.

.. ..

رأسي!.. جمر!.. بدأت أحترق! أشم رائحة الحريق خانقة. وأذكر البحر!.. البحر!.. من لي غيره؟..

ولكن أما زال قادراً على إطفاء حريقي؟!

أخذتني إليه.

وقفت أمامه. بدا شاسعاً جليلاً، مربداً وحزيناً.. حام سؤال بغتة.. أهو الصيف؟ أم الخريف؟

قبالة البحر، كان رأسي لا يتحرك، وعيناي لا تقدران على الدوران في محجريهما. توقف بصري أمام البحر المتموج الكئيب الممتد كالسراب يطوق المدينة.

جلست قبالته.. ناديته.. و.. بكيت.

.. يا بحر! خذني!

خذني إليك!.. قبل أن يغرقني الجحيم.

7

من الأدراج المغلقة لخالد الحديدي

الأخبار 1 جويلية 1980

صفحة المجتمع

من مراسل جريدة الأخبار بمدينة هيبو:

صحت مدينة هيبو البارحة على خبر فاجع. فقد قتلتْ المرأة المسماة شرود سليمان رضيعها البالغ من العمر خمسة شهور. وقد وجدت جثة الرضيع بين يديها مزرقة من جراء الخنق.

ونظراً للحالة غير العادية التي وجدت عليها الأم القاتلة، فقد أودعت مستشفى الأمراض العصبية للمراقبة والتحقيق لا زال جارياً.

-8-

من الملف الطبي لشرود لسيمان

جلسة عدد.. .. .. ..:

كان زهر يمسك بيديه الصغيرتين ثديي المحتقن. انفتحت شفتاه. التقم الحلمة الموردة المتورمة. أخذ ينهل.. ينهل.. ينهل.. والحليب يتردد صداه في حلقه، رتيباً سخيّاً، لا مبالياً.

ظلّ ينهل بأناة وطمأنينة، في حضني. يمناي تحضنه ويسراي تشد الكتاب المفتوح.. يومان فقط قبل الامتحان، وكل ما في رأسي يلتهب.. ومع ذلك، أحاول الإمساك ببعض السطور.

أدرت الصفحة، تشبثت الأصابع الدقيقة بطراوة الصدر.. انفلت النهد المدر فجأة. ضربت قدم غاضبة الكتاب.. فهوى.. وأجهش زهر بالبكاء. رفست الأقدام الصغيرة الغاضبة حضني.. رفست رأسي.. بعثرت السطور.. وأسرعت الأصابع الدقيقة تشد الثدي، تنشب أظافرها الحادة فيه.. اشتد الضغط على الحلمة.. اشتد الضغط على الرأس.. وطوق الحديد عاد، ضيقاً، حامياً، زائراً، ينغرس في اللحم والعصاب.. والرضيع اللامبالي يتشبث بالصدر العاري..

يمتصّ..

يمتصّ..

يمتصّ..

طوق الحديد، حفارة، عدوانية شريرة.. تحفرني.. تئز.. لا تنقطع عن الأزيز..

الكتاب على الأرض.. يدي لا تمتد.. الأرض تميد.. تنشق كلوماً غائرة في مربعات الجليز.. وزهر يتشبث بي.. يرضع الثدي الحلوب.

النار تلهب رأسي.. تشب من طوق الحديد.. ينزل الألم إلى القلب.. يجنني.. يكفرني.. يتصلب الجسد.. تتوتر اليدان.. تتيبسان.. تتيبسان حول الحضن الظمآن.. تضغطان على الألم الحارق..

.. تضغطان..
.. تضغطان..
وأنثني على أوجاعي..
أسقط..
أسقط في كلوم الأرض مطوية على ألمي.. أنا.. وزهر.. والكتاب.
أغرق!
تنهال علي الظلمة.. والتراب.. والسقوف القديمة.

فجأة هزتني صرخة. وإذا خالد أمامي جاحظ العيون.. شدني من شعري.. أفتَكَ زهر.. كان زهر ساكناً هادئاً وديعاً.. مرتخياً.. فقط، بدت على وجهه زرقة غائمة جرّني على الأرضية المحفرة.. صوته الهدام يضرب الجدران.
-الويل لك!.. الويل لك!
ماذا فعلت؟.. ماذا فعلت بولدي؟!

شاهدتهم.. كلهم.. حولي.. كلهم يصرخون.. الصغار والكبار.. الرؤوس السبعة المربوطة في حجاباتها.. خُمرهن السوداء والكفنية تتدلى على وجهي.. تجرحه بشفرات لا ترى.. وأنا، مرمية على الأرض. العيون تنهش.. والألسنة تتدلى.. تتربص بي.. والأصوات المتداخلة ترعد.
-أعوذ بالله!..
-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!..
-لا حول ولا قوّة إلا بالله!..
-.. لعنة الله على الكافرين!..
-كافرة!.. ملعونة!.. حطب جهنم!
.. ..
كنت على الأرض في صحن الدار.
لا أدري!.. هل سقطت؟.. هل فقدت رجلَي!؟.. هل جروني على السلم ودفعوني إلى الصحن؟.. الوجوه حولي فزعة.. متكاثرة.. العيون مشدوهة، مغروسة فيّ.. وسلوى باكية تقترب.. سائلة.. وتغيب..
.. لم أكن أفهم شيئاً.. كان الألم الرهيب يغرس إبره في الرأس،

والشمس فوقي تلتهب، وعيونهم الجاحظة تستطيل.. تقترب.. تبتعد.. وتقترب!.. عيون قطط عملاقة شرسة.. والأشداق تتباعد.. والأنياب تدنو حادة قاطعة.. والألسنة الحمراء تمتد.. تقطر دماً.. تدور.. تدور.. تدور..

أردت الهرب.. لم أجد رجلَي.. لم أعد أسمع.. لم أعد أرى غير وجوه ذئاب مسعورة تنحني عليّ.. عاوية.. ثم.. جاءت الشمس! مدت ألسنتها! التهمت الوجوه حولي.. والأرض.. والسماء.. والتهمت بقاياي.. وهويت بعيداً!.. بعيداً!.. في ظلمة بلا قرار!

9

ها هي الربوة الأخيرة!

وسيارة البيجو تنهب الأرض. تصعد وتنحدر مسرعة بين الحقول الممتدة العارية، لتبدو أخيراً المدينة.

ها هي مدينة هيبو! في بياضها المريب، ممتدة لا مبالية بين أحضان البحر المتوسط.

انكمشت شرود في مقعدها. انتبهت إلى حزام الأمان يربطها بشدة إلى المقعد. همّت بفتحه. ولكن خالد أمسك الأصابع المحاولة فتح الرباط.

-مهلاً! لم نصل بعد!

.. تلك اللمسة! كانت تعيدني إليك! تمسكني من سقوطي. تبعث فيّ نشوة الحياة!.. تلك اللمسة! أصبحت مجرد رسم أليف في دفتر أيامي الأولى معك!

أرخت شرود جفونها لخيوط الشمس تلاشت سطوتها منذرة بخريف قادم. أسلمت رأسها الثقيل لمسند المقعد. هبت في وجهها ريح الشمال المشبعة بروائح البحر.

ناداها عبد الحليم من المذياع. عادت تفتح له دروب الوعي والوجدان.

يا شارع الحنين
مشيتك أنا
مرّة بالعذاب
ومرّة بالهنا
مشيتك وحبي
يسأل على دربي

في ظلام الليل.
والطريق.. و.. قلبي
تحت القناديل نمشي.
والضي العليل يشكي
حكينا، حكينا، والدمع في عينينا
رابح، رايح ولا تسأل علينا!
ولا تسأل علينا!
.. رايح!.. رايح!

ثم سكت عبد الحليم واختفى النغم، وارتفع صوت خالد وهو يخفف السرعة:

-لقد وصلنا!

وأقبل الجسر، بمعدنه الأسود العالي على الجانبين، معلقاً عالياً في السماء، صراط عبور إلى المدينة.

»أيها الداخلون إلى هنا، تخلوا عن كلّ أمل«

قرأت اللافتة الكبيرة المرحبة بالقادمين.

شقت شرود الصراط مع جموع الداخلين الراجلين والممتطين سياراتهم. تحت الصراط. كانت مياه القنال تموج وتركض مع تيار الريح. بدت المياه بلا سفن، ولا زوارق على الضفاف، عدا مركب قديم باهت الألوان مقلوب على الرمل. غاب الصيادون والطلبة واختفت النوارس.. رغماً عنها، التفتت شرود إلى الوراء.. هناك، في العراء، بدا مبنى الجامعة العالي، كئيباً مغلقاً على صمته.. وبدا أمير في قميصه الكناري، كما رأته آخر مرة، في ذروة النشاط، وكلماته ترفرف على أجنحة الغيم السائر إلى المجهول.

»أنا حر! لا يقيدني يمين ولا يسار!.. لا يمين ولا يسار! فلم أخاف؟.. أنا حر!«

أغلق خالد المذياع. وانحدرت السيارة من الجسر المتحرك المعلق في مهب الريح. لقد لآن أوان الدخول!

ها هي هيبو من جديد!

هيبو القلاع والشروخ!
هيبو الأكفان وشباك العنكبوت!
هيبو الأوتار المقطوعة والأنغام الضائعة!

رجف القلب. رجف الجسد. وهمهمت شرود:
-أرجوك!.. لا تدخل الآن.. توقف!
انتبه خالد إلى شحوب مخيف طارئ يأخذها.
-ما بك؟
-.. .. ..
-.. ما بك؟
بعد هنيهة، همست شرود.
-أحتاج إلى قهوة.. توقظني.. بعيداً.. قبل الدخول!
لم يعلّق. انعطفت السيارة إلى اليمين وانطلقت تحاذي الشاطئ، مبتعدة عن صخب المدينة الناهضة لنهار خريفي يكاد ينتصف، وخالد يسترق النظر إليها، من حين لحين.
على الكرنيش، أمام مقهى »الملاح«، ضغط خالد على الكابح. نزل مصاحباً شرود إلى المقهى البحري القديم.
فيما مضى، هنا سِهرا.. والليل يصدح بصوت الغناء ومصابيح المقهى الملونة تنوس بظلالها الحمراء مع الريح. كانا يحتفلان.. بماذا؟.. نسيت شرود. ولكنها تذكر أيديهما المتشابكة فوق المنضدة البيضاء، وصدى صوته الدافئ يصاحب وشوشة الموج للرمال: ».. رغم غرابتك!.. أحبك!.. أحبك دوماً!«.
كانت الشمس تبدو وتغيب. وخالد وشرود ينزلان الدرج الحجري لمقهى الملاح. بدا المقهى خالياً من الرواد، ساكناً إلا من صدى البحر. تقدما إلى المناضد الموضوعة عند أعتاب الشاطئ. رشهما الموج. تراجع خالد.. وظلت شرود واقفة في فستانها الأزرق المنساب على الجسد النحيل، وجهها إلى البحر. والموج يتراجع، شاهدت الانحدار الصخري لقاعدة المقهى عارياً مبللاً، وقد اقتلع البحر بعض صخوره. وعلى اليسار، على الرصيف الحجري الخالي، بدت بقايا جرار مكسورة مهملة.

استسلمت شرود للمقعد المقابل للبحر. جلس خالد أمامها. هبت ريح الشمال توقظ وجع السؤال الذي غلّفوه بأقراص النسيان. لمعت، فقط، عيناها النديتان بالسؤال.

»هل علمت شيئاً عن أمير؟ أين أخذوه؟؟«

ولا جواب!.. غير سؤال يولّد في عينيه سؤالاً.

»وهل عرفت أين زهر!.. أين هو الآن؟!«

لا تدري لم ارتجف الجسد.

كانا صامتين والموج يهدر والنادل يسأل باسماً:

-ماذا تشربان؟

أخذت شرود قشعريرة برد.. ارتفعت يداها النحيلتان حول الذراعين العاريين. لم ينزع خالد سترته ويضعها على كتفيها. لم يلمح بريقاً ندياً يكاد يفيض من العينين العسليتين.

ولكن النادل الفتى شغّل في سكون المقهى آلة التسجيل وارتفع النغم الشجي، وصوتها.

.. ..

أيمكن أن تعود اللغة؟ ترتفع أصابع الموسيقى تلم شظاياها وتشكلها من جديد؟!

كانت الأعشاب البحرية تتجمع عند أقدام مقهى الملاح وموج البحر يتابع ضرب حافة المبنى، يرشها زبده ويولي راجعاً، والموسيقى ترتفع من آلة التسجيل، وصوتها ـكوكب الشرق- مليئاً بالشجن، يعود بعذب الغناء.

أنا لما حبيتك خطر على بالي
اللي جرى لي واللي راح يجرى
لـــــــــــــــــــــي

وعاد الشرق أسى ولوعة وحنيناً في صوتها.

وضع النادل فنجان القهوة أمام خالد، وأمامها كأس عصير الليمون. تساءلت عن القهوة. تجاهل خالد السؤال، وامتدت الأصابع السمراء المشعرة إلى يدها.

-قال الطبيب إنك بخير الآن! ولكن عليك الابتعاد عن المنبهات.

رفع فنجانه وعيناه ترقبانها.

-لمَ هذا الصمت الآن.

.. ..

»أهو التعب؟.. أم الندم على ما فات؟«

افتر ثغر شرود عن بسمة ساخرة خاطفة.. وهي ترى الفنجان والسؤال الصامت معلقين بين الشفتين.

»الندم؟!.. أي ندم؟!.. هل اخترت شيئاً لأندم عليه؟

سلاسل لا مرئية تقودنا لنمضي على اختياراتنا بحبر الوهم!

إننا نوهم الاختيار ونساق إلى قدر محتوم!«

كاد خالد يندفع مردداً السؤال، لكنه تماسك. ورفع الفنجان يجرع قهوته.

»لا ندم!.. لا ذنب!.. وصمت كئيب!

من المذنب إذن؟!.. قد أكون أنا صاحب الخطايا والذنوب؟!

ضربت موجة عالية المنحدر الصخري، رشهما الزبد. أيقظ معه لغة اختفت تحت أنقاض القلعة، عادت تنساب مع الماء على الشفتين المطبقتين.

».. الخوف!..

إنه الخوف!

الخوف الذي يكبلني! يكبلك ويخرس صوت المدينة! فلا يرتفع بالكلام أو النشيد!

الخوف رضعناه في حليب أمهاتنا.. سرى في دمنا.. نقش تحت جلودنا.. نخاف الأقوى. ونترك الخوف ينمو.. يتورم.. يصبح ورماً سرطانياً خبيثاً يأكل كل خلية سالمة.. يسلط علينا شباكه المظلمة.

في الظلمات نصرخ.. نكسر ونحطم ما أمامنا، ولا ندري أننا نكسر ونحطم أنفسنا.

أنت تحطمني وتكسرني.

وأنا أكسر صحوني وقلائدي.

وحين أختنق أكسر ذاتي.

والمدينة تغلق نوافذها. تغلق سماءها وبحرها وتحطم نفسها في صمت«.

كانت أصابع خالد متوترة، تنقر الطاولة بصمت وشرود هائمة مع لغة الماء.

-الأفضل أن تشربي عصيرك!.. سينعشك!..

قال. ورفع فنجانه. يرشفه حتى الثمل. وضعه في صحينه الصغير ثم وقف في شبه جزم.

-هل نعود؟؟

.. آن أن نعود!!.. ولكن.. إلى أين؟

إلـى الماضـي؟!.. إلـى القلعـة التـي أوقـدت محرقتـي؟! أم إلـى السجون والقبور نبحث عن الأحبة الغائبين؟

-ألا تجيبين؟

علا صوته الخشن، ثم لان فجأة وهو يضيف ويعود إلى مجلسه:

-لي عندك مفاجأة!

ورمى على المنضدة مفتاحاً صغيراً لامعاً.

-لقد استلمت مفتاح الشقة التي دفعنا أقساطها الأولى. واخترناها كما أردت، في الدور الرابع الأخير. لقد اكتمل البناء!

تعلقت عينا خالد بوجه شرود. ترقب فرحاً يبزغ فجأة، طالما كان ينتظره في العينين العسليتين الواسعتين. ولكن أقراص التخدير التي أدمنتها، أخمدت الأتراح والأفراح. زاغ النظر في المدى.

-كل الأبواب مغلقة! كل المفاتيح رتاجات على باب المدينة! لم تعد قادرة على فتح فجر واحد في غدي!

غام الشموخ على جبين خالد. وخاب الرجاء.

-كان اليأس الأَوْلى بي أنا! والقطيعة بعد كل ما حدث! ولكنك تحت العلاج، والطبيب يؤكد أنك ستتجاوزين صعوبة العودة، إذا أردت!

-لقد انكسر الجسر! لم تعد تجدي المفاتيح!

-يمكننا بناء جسور أخرى أقوى وأبقى!

-أي عماد سيرفعها؟.. لقد هوت كل الأعمدة!

احتد نظر خالد واحمر بياض عينيه. ثم ارتفع صوته بتعاسة غامرة.

-ألم يناولوك دواءك هذا الصباح؟

لم تستمع شرود للسؤال. فقد ارتفعت موجة عالية ضربت صخور

المقهى، سحبتها معها إلى المدى الأزرق البعيد. والنغم راح يموج ويناداح، يرفعها معه، يواسي وحدة الروح. استسلمت شرود للنغم. للبحر يتكسر موجه على صخور المقهى، ينعشها زبده المتناثر على الأطراف تحت غيم شفيف.

شاهدت شرود البحر يتقدم على جانبي المقهى الخاليين، يرسم بألوان الماء ورغواته حبيبات اللؤلؤ على الرمل المبتل، يضيء الرمل المبتل بألوان سماء الخريف.

دعاها الشاطئ والحبيبات البيضاء.

»خطانا ما زالت مرسومة على الرمل، يغسلها الماء ليمحوها، ويتراجع، فتعود تظهر من جديد.. تنادي

جبل التوباد حياك الحيا.

وسقى الله صبانا ورعى

تلتمع الآثار الصغيرة على الرمل المبتل، يلتمع صدى الغناء

وعلى شطك عشنا زمنا

ورعينا إبل الأهل معا

هذه الربوة كانت ملعباً

لشبابينا وكانت مربعا

كم بنينا من حصاها أربعا

وانثنينا فمحونا الأربعا

وخططنا في نقا الرمل فلم

تحفظ الريح ولا الرمل وعى

ولكن الرمل عاد يعي، والماء عاد يكتب، والموج أقبل ينثر لآلئه لتكتب بها أقدام الصبا.. ويركض أمير.. يرمي.. علي الأصداف، وكرات الرمل المبتل ويمضي هارباً..«

ويظل البحر والنغم يشدوان والماء الصاخب يتعلّق بأذيال الثوب الأزرق الليلي. يحتفي بشرود.

أسرع خالد خلفها. شدها من معصمها.

كان الماء يركض عليها ضاجاً صاخباً. جذبها خالد عائداً بها إلى المقهى بعد أن تركته لتسيح على الشاطئ الخريفي القفر.

قادها إلى السيارة. وأطبق عليها الباب. حين شغل المحرك، ارتفع

صوتها.
-أريد أن أعود.. إلى هناك!
التفت، قبل أن تضغط قدمه على دواسة البنزين
-إلى أين؟
-إلى بيتنا!
-الجديد؟
-لا.. هناك!
وأشارت إلى الربوة البعيدة، على الجون الأخير..
»بيت صباي!«
أوقف خالد محرك السيارة واستدار.
-لماذا؟؟ أليس لك بيت تعودين إليه؟.. من المصحة إلى دار مهجورة؟!
ظلت عينا شرود تنظران بعيداً.
-هناك عمتي عائشة.
-مع العجوز؟.. سـ..
وابتلع الكلمة ـ ستتعبين
-ليكن! على الأقل، لأول مرة سأختار تعبي!
-إننا لا نختار أتعابنا! لا نختار مصائبنا! وبعد أليس الاختيار وهماً كما تقولين؟؟
-ربما خارج سلاسل المدينة، يمكن أن أختار!
-إنك تحلمين! لقد عدت تحلمين!
-أحلم؟!
ليتني أحلم! ليتني!.. لقد فقدت الحلم من زمان!
»الحلم اختفى والحب ضاع! لا أدري كيف! ولكنه تاه مني في الحريق الذي شبّ في المدينة العتيقة. أصبح داخلي مكان خاو مظلم. أحسه أحياناً مخيفاً، ممتداً في أعماقي. سعوا إلى إخفائه بركام الأقراص المنومة والمخدّرة، ولكن ها هو يعود قناع التخدير تثقبه الذاكرة. فكيف أهرب من الذاكرة؟؟! وهل أقدر بعد هذا على الحلم؟!«
ظل خالد صامتاً، قلقاً، مشتتاً. عيناه تسألان الغد في عينيها. شاهد انفراجة الشفتين الشهيتين. امتدت يداه تشدان ذراعيها الأبيضين العاريين. كاد يهوي على فمها يقتلع هذا الجنون الغامض الأخير.

ولكن التماعة ندية في العينين الذابلتين أوقفته وارتعاشة الشفتين بالرجاء.

-أرجوك!.. أريد أن أعود إلى هناك!

-هو الهروب من جديد!!.. هل تريدين القطيعة؟

-..! ما زلت متعبة!

لن أقدر على دخول هيبو الآن!.. لن أقدر!.. أحتاج - ولو مرة - أن أختار!

-أي اختيار هذا؟ العزلة! أنت تهربين! تبحثين عن الفراق!

-اعتبرها فترة نقاهة لا مناص منها، كي أعود!

»ربما في عزلتي، في رحم الوحدة، يمكن أن أفك السلاسل الظاهرة والخفية، يمكن أن أختار!

عزلتي اخترقها العسس والجواسيس.. سرقوها مني!.. عروني مني! من ذاتي ومن جسدي!.. ولكن هناك! يمكن أن أعود، أرتق ذاتي الممزقة، ألفها في قطن العزلة، أعيدها إلى رحم البحر، لتولد من صفاء الماء من جديد.

عادت شرود تولي وجهها ناحية الشاطئ القفر.

ارتخت ذراعا خالد. وعاد يشغل محرك السيارة لتنطلق مزمجرة على الدرب الساحلي.

على البلور الأمامي، نزلت قطرات مطر. شاهدتها شرود تتناثر.. تلتمع وتسيل.

أغمضت عينيها، وانتعاش طارئ يتسلّل إلى الروح. استسلمت لوشوشة الزخات..

ثم، سكنت الوشوشة وتلاشت.

فتحت عينيها والسيارة تكبح سرعتها الجامحة، وتميل إلى الحافة الترابية للطريق، وتتوقف أمام البوابة البيضاء المشبكة. نادتها بوابة بيت الصبا. ناداها الشجر والأرض والسماء. »ها هي الزيتونة في عمر أبي تطل من السياج.. وقصب الخريف.. وأعلى شجرة التوت..!«

تقدمت شرود. أنزل خالد الحقيبة الصغيرة وطرق الباب. لم تفتح العمة عائشة.

»قد تكون تصلي الضحى أو تسبّح أو تتلو أورادها لعودة أهل

الدار!«

دفعت شرود الباب الخارجي فانفتح.

هبت إليها رائحة الأرض الدفيئة المنعشة بعد المطر.

بدا الممشى مكسوّاً بالأوراق المصفرّة المتناثرة، وأصص الحبق الصيفي الذاوي على الحافتين.. والفراغ.. والسكون.

لم تر الحمائم التي ربّوها معاً. ولكن الياسمينة هناك، ما زالت تنتظرها بنجيمات صغيرة بيضاء، وقطرات مطر ما زالت عالقة بالأوراق وبتلات الزهر.

دون أن تلتفت إلى الوراء، همست لخالد..

-يمكن أن تتركني الآن!.. عمتي على السجاد!

في السكينة، زمجر صوت سيارة البيجو العائدة إلى المدينة، وابتعد. وحيدة، تقدمت شرود على ورق الخريف. رمت حقيبتها تحت الزيتونة الهرمة. ما زال لها الوقت الكافي لدخول البيوت. لامستها الزيتونة بغصن ينوء بحبات زيتون أخضر لم يمس.

على عتبة الباب، بدا الطريق خالياً، والبحر الشاسع، شهياً، مائجاً، يرفع أيديه البلورية الزرقاء، يلوح لها، ويدعوها. استجابت شرود للنداء. قطعت الطريق.. نزلت المنحدر الصخري للشاطئ المهجور. رمت حذاءها على الرمل.

من البحر طلعت غيمات. تقدمت تحجب بعض أشعة باقية. رفعت إليها وجهها..

أجل تعال يا غيم!.. خفف عنا سلطة النور الكاذب الموبوء!..

تقدم يا غيم!.. اغسلني!.. واغسل هذه المدينة الوسخة!

استمعت الغيمات إلى شرود. جاءت غيمات أخر. هدأ ولان لون الرمال. وعادت تمطر، رذاذاً خفيفاً شفافاً ناعماً، ينقر هسيسه ماء البحر. يوقع على أوتار الماء.

تقدّمت شرود إلى البحر.

وقتها، سمعت أباها يصلي.. وأمها تناديها للدخول.. وشاهدت العمة عائشة تقبل، تحضنها، وتسمي باسم الله.. وأمير، راكضاً، يمسك سطله البحري يعلوه الرمل والأصداف.

وسمعت رنات عود سي الطاهر، حافظ التاريخ. ومعلم الألحان.

و»آليف يا سلطاني والهجران كواني« تتلو حنين النغم الأندلسي.
وصدى أصواتهم تردد الغناء مع الهدير.
»سي الطاهر ينتظرنا!« قال أمير ذات لقاء.
راعي النغم. وحبيب أبي!.. »ينتظرنا!«
كيف تهت عنه في غمرة الحريق، وضيّعت العنوان؟
»ينتظرنا«!..
ينتظرني!.. لنطرق معاً الدروب المجهولة والأبواب المغلقة..
علّي أعود ألقاك!

تتابع المطر، يهمي على البحر والشاطئ، يغسل شرود.
تألقت بين خيوطه والبحر عينا أمير. مدت الذراعين العاريين لنشيد السماء، للوجه النائي برّاق العيون، يعيد بحبات المطر العناوين الضائعة.

رغم الخواء الشاسع داخلها، والفراغ الغائر العميق في الروح والجسد، وروائح الأدوية المنتشرة في الكيان، تتواتر، وروائح البحر تخمد العنفوان القديم، فقد ظل البحر مهجوراً.. تحت المطر، يغني لها، وحدها.
لا يكفّ عن الغناء.

الفهرس

إهداء
تقديم
الجزء الأول
هامش 1
هامش 2
من أوراق أمير
هامش 3
هامش 4
الجزء الثاني
هامش 1
من أوراق أمير
هامش 2
من مذكّرات شرود
هامش 3
الكلمات الأخيرة
دروب الفرار

مـــــــن الأدراج المغلقـــــــة لخالـــــــد الحديـــــــدي

مـــــــن الملـــــــف الطبّـــــــي لشـــــــرود ســـــــليمان

صدر للمؤلفة:

- **الطفلة انتحرت** »قصص«، الدار العربية للكتاب.

- **رسائل لا يحملها البريد** »نصوص شعريّة«، الشركة التّونسيّة للتوزيع.

- **في ظلمة النّور** »قصص«، منشورات قصص.